

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف

يقول الله تعالى: ﴿الْمَصَّ﴾

هذه هي الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقد تكلم العلماء في تحديد معناها بأقوال عديدة، من أبرزها: أنها حروف من جنس ما تحدّث به العرب، جاءت هكذا للفت أنظار المشركين، وجذب اهتمامهم لسماع القرآن الكريم، الذي كانوا يُعرضون عنه، بل كانوا يقولون لبعضهم البعض: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] ولكن القرآن غلبهم، فأسمعهم، وألزمهم، وأسقط حُجَّتَهُم بهذه الحروف.

﴿كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

والمعنى: هذا القرآن ﴿كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ من ربك يا محمد؛ لتبليغه، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: ضيق بسبب ما ينالك من أذى قومك، وتكذيبهم لك، وعنادهم معك، وقد أنزل إليك هذا القرآن: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ الكافرين، وتُخَوِّفَهُم من عذاب الله تعالى، ليكون ﴿ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تذكّرهم به.

ثم ينتقل الخطاب الإلهي إلى الكافرين، فيقول رب العزة:

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

والمعنى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم، من القرآن، والسنة، والتزموا بهما، واهتدوا بهديهما، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ غير الله تعالى،

تَتَّخِذُونَهُمْ لَكُمْ أَوْلِيَاءَ وَمَعْبُودَاتٍ، يَضْلُونَكُمْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، إِلَى الْأَهْوَاءِ
وَالْبَدْعِ وَالضَّلَالَاتِ.

﴿قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ حيث تتركون دين الله، وتتبعون غيره، بسبب تذكركم
القليل، وإعمال فكركم الكثير.

ولهذا: فالذكر الكثير، والتذكر الكثير: هما طريق الهداية، والنجاة من الانحراف.

ثم يهدّد ربنا سبحانه وتعالى من مخالفته بضرب المثل بمن خالف قبلاً؛ فأهلكه الله،
حيث يقول عز وجل:

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿٤﴾

يعني: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ﴾ من قبلكم عاند أهلها، فلم يؤمنوا، ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أردنا
أهلاكها؛ عقاباً لأهلها، ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿بَيِّنًا﴾ أي: ليلاً كما حدث
لقوم لوط عليه السلام ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: في النهار، وقت القيلولة والاستراحة في
الظهيرة، كما حدث لقوم شعيب عليه السلام.

فماذا فعلوا ساعتها؟ دعوا ربهم واستغاثوا. وماذا كان دعاؤهم؟

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٥﴾

يعني: حينما ﴿جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا، وإهلاكنا لهم ولقراهم دعوا ربهم،
واستغاثوا، وما كان دعواهم واستغاثتهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ تحسراً وندامة ﴿إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ﴾.

ولم يستطيعوا دفع العذاب عن أنفسهم ولم ينفعهم - في الوقت ذاته - الندم، وأنتم - أيها
الكفار جميعاً - كذلك. وهذا عن العذاب في الدنيا. فماذا عن العذاب في الآخرة؟

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾

يعني: سيكون السؤال والحساب يوم القيامة، حيث نسأل الأمم: عما أجابوا به رسلهم،
كما نسأل الرسل: عما أجابتهم به أممهم. وأيضاً:

﴿فَلَنَقْضَنَّ عَنْهُمْ يِعْلِيلَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ ﴿٧﴾

يعني: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فلتخبرن الرسل ﷺ والأمم، بما كان من كل منهم ﴿يَعْلَمُ﴾ ونحن عالمون بأحوالهم الظاهرة والباطنة، ومواقفهم كلها.
ولكن كيف يكون الجزاء؟

﴿وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾
والمعنى: يكون الجزاء يوم القيامة بوزن الأعمال، والأقوال والمواقف.
﴿وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي: يوم القيامة يكون الوزن حينما يسأل المولى الرسل والأمم: بالعدل.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالحسنات، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون برضوان الله.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بسبب السيئات، ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وضيعوها، وصيروها إلى النار، والسبب ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي: يظلمون أنفسهم بعدم الإيمان بالله، والاعتبار بآياته.

وبعد أن أمر الله الكفار باتباع ما أنزل الله، ونهاهم عن اتباع غيره، وخوفهم بما حدث للأمم من قبلهم من العذاب في الدنيا والآخرة، ذكّرهم بنعمه التي تقتضي منهم الإيمان بالله تعالى، والشكر عليها، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠)
يعني: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يا بني آدم، وملّكناكم وأقدرناكم على التصرف فيها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ من المطعم والمشرب، وما تكون به الحياة والمعيشة الهنيئة، ومع ذلك فأنتم: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله على هذا التمكين لكم في الأرض، والجعل لكم من ألوان المعاش، حيث لا تؤمنون به، ولا تتبعون ما أنزل على رسوله ﷺ.

ثم يذكّر ربنا بنعمة عظيمة على آدم ﷺ، لا تزال سارية على ذريته إلى يوم القيامة، حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

والمعنى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم من العدم، حين كان طينًا، فصار بشرًا، ثم ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: صَوَّرْنَا أباكم آدم، حين كان بشرًا، بشق حواسه، من السمع والبصر، وغير ذلك، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود تحية، ﴿فَسَجَدُوا﴾ طاعة لأمر ربهم، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أبا الجن، الذي كان بين الملائكة ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

حيث تأبى على أمر الله تعالى، ولم يسجد لآدم: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ بالسجود، وأنت بين الملائكة؟ ﴿قَالَ﴾ إبليس جواباً لسؤال ربه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ولذلك لم أسجد له، ولكن ما وجه هذه الخيرية التي يدّعيها إبليس؟ قال: ﴿خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ والنار خير من الطين، فأنا خير منه.

وقد أخطأ إبليس في ذلك عدة أخطاء حيث: خالف الأمر، وفارق الجماعة، واستكبر على أمر الله، وحقر آدم ﷺ.

وكلها: بلايا تؤدّي بصاحبها إلى شر المهالك. ولذلك:

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: ﴿قَالَ﴾ تعالى لإبليس اللعين ﴿فَاهْبِطْ﴾ يعني: انزل هابطاً مطروداً ﴿مِنْهَا﴾ أي: الجنة، وقيل السماوات؛ لأنك استكبرت، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما ينبغي لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ حيث إنها مكان الطائعين المتواضعين، وأنت لست منهم، ﴿فَاخْرُجْ﴾ منها، ومن بين أهلها ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الذليلين الحقيرين، يذمك كل إنسان، ويلعنك كل لسان.

ولمّا كان أهل الجنة لا يموتون، ومن ليسوا فيها من أهل الدنيا يموتون: خاف إبليس أن يموت، بل أن يذوق طعم الموت!! لذلك: سأل ربه أن لا يموت، حيث:

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ إبليس لربه ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أخرني، ولا تُمِتني ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تُمِتني نهائياً؛ لأنه لا موت بعد البعث. ولذلك، وتفويتاً لقصده ورفضاً لطلبه:

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٥)

أي: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي: المؤخرين، ولكن ليس ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]، بل ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨] أي: وقت لنفخة الأولى، التي تمت جميع الخلائق. وهنا:

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧)

يعني: ﴿قَالَ﴾ إبليس اللعين، لما رفض الله طلبه الخلود: أحب أن يتنقم أخذاً بثأره، فيما يتصور، ﴿فِيمَا آغَاوَيْتَنِي﴾ أي: بسبب وقوعي في الغي والضلال، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ يعني: لبني آدم، أي: أحول بينهم وبين ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: الموصل إليك، وهو الإسلام.

﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ يعني: من كل جهة، فأمنعهم من سلوك الطريق المستقيم، وهو الإسلام.

ويلاحظ: أنه لم يذكر جهتين الجهة السفلى: تكبراً منه، والجهة العليا: حيث لا يستطيعها - كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما - لثلا يحول بين العبد ورحمة ربه.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي: مؤمنين، بسبب إغرائه لهم.

وبعد هذا الحوار:

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨)

يعني: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى أمراً له: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، أو من السماء، ﴿مَذْءُومًا﴾ معيياً ﴿مَدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى؛ لتفسد في الأرض، وتُغوي أتباعك من الضالين.

وَأَقْسَمُ ﴿لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ﴾ أي: منك وذريتك وممن تبعك من الناس ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أعذبه فيها.

وبعد ذلك وجه الله الخطاب لآدم ﷺ قائلاً:

﴿وَيَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩)

يعني: ﴿و﴾ بعد طرد إبليس من الجنة قال الله تعالى: ﴿وَيَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ فهي سكنكما، ومقر إقامتكما، ﴿فَكُلَا﴾ منها، ومن ثمارها ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ الأكل فيه، ﴿و﴾ لكن ﴿لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: بالأكل منها، ولو فعلتما ذلك، وأكلتما منها ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فتصيرا بمخالفتكما للأمر الإلهي من الظالمين لأنفسكما. ثم ماذا حدث لهما؟

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠)

يعني: بعد النهي الإلهي لآدم وزوجه عن الأكل من الشجرة، التي حددها لهما رب العزة، تدخل الشيطان ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي: إبليس بكلام خفي، مكدر، لماذا؟ ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾ أي: ليكشف لهما ما اختفى واستتر عنهما ﴿مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ يعني: عوراتهما، وذلك: ليوقعهما في المعصية؛ فيخرجا من الجنة، كما خرج منها.

﴿وَقَالَ لَهُمَا ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ﴾ الأكل من ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا﴾ بقصد أن لا ﴿تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ تعلمان الخير والشر ﴿أَوْ﴾ لا ﴿تَكُونَا﴾ في الجنة ﴿مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ الذين لا يموتون أبداً. ثم أكد لهما صدق كلامه:

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾ (٢١)

يعني: أقسم لهما بالله، وقال: ﴿إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾ الذين يدلانكما على النفع والخير لكما. وهو كاذب في هذه النصيحة.

ولأن آدم ﷺ كان يظن أن لا أحد يحلف بالله كاذبًا: فصَدَّقَه، واغترَّ به، ولذلك يقول رب العزة:

﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا يُغْرَوْنِ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْنَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

والمعنى: ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا﴾ أي: فخدعهما ﴿يُغْرَوْنِ﴾ أي: بزخرف من القول الباطل.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ أي: أكلًا منها أكلًا خفيًا لمعرفة الطعم: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ أي: ظهر لكل واحد منهما عورته وعورة الآخر، ولذلك ﴿طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ أي: أخذًا يلصقان على عورتيهما ﴿مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ليسترا به عورتيهما، ﴿و﴾ هنا ﴿نَادَيْنَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قائلًا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فلا تطيعانه، وهذا: عتاب من الله لهما، وتنبيه على الخطأ منهما. ولذلك:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

يعني: ﴿قَالَا﴾ أي: آدم وحواء ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ بمعصيتك ومخالفة أمرك وتعاليمك، ومطاعاة عدونا وعدوك، ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لرحمتك ورضوانك، وكان في هذا: توبيهما من هذه المعصية. وبعد ذلك:

﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لآدم وحواء، وما اشتملا عليه من ذريتهما ﴿أَهْبِطُوا﴾ أي: من الجنة، أو من السماء، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: تعادون إبليس وبعاديكم، ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ مكان استقرار وإقامة، عليها تعيشون، وفيها تدفنون، ﴿وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي: وتمتع بعيش إلى حين تنقضي آجالكم بالموت.

ثم وضع ذلك حيث:

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢٥)

يعني: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ أي: في الأرض وعليها حياتكم، وموتكم، ﴿وَمِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ يوم البعث للشواب والعقاب، على ما كان منكم.

ثم عرض قصة بداية الوجود الإنساني على الأرض.

وها نحن الآن - على الأرض - تجري علينا أحكام وقوانين جديدة تناسب هذا الوضع الجديد، ولذلك: يبدأ المولى بعدة نداءات لبني آدم:

النداء الأول: ﴿يَبْنَىٰٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسَ الْتَقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢٦)

وفي هذا النداء: يذكرهم بنعمة ستر عوراتهم، والمعنى: ﴿يَبْنَىٰٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ لباسين: ﴿لِبَاسًا يُورِي سَوَءَ تَكُمُ﴾ ويغطيها ويسترها، ولباسًا يزينكم ويجملكم ويحسن مظهركم، هذا ﴿وَلِبَاسَ الْتَقْوَىٰ﴾ الذي بقي عذاب الله، وهو طاعته: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من كل لباس سواه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إنزال اللباس نعمة من الله، آية ﴿مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته بعباده، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون عظيم إنعام الله، فيؤمنون.

والنداء الثاني: ﴿يَبْنَىٰٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيرِيَهُمَا سَوَءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَرَئِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧)

وفي هذا النداء: يحذّرهم فيه من إبليس وذريته.

والمعنى: ﴿يَبْنَىٰٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يخدعكن، ويضلكن، ويغويكن بالمعصية، فيبعدكن عن دخول الجنة، ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ آدم وحواء سابقًا ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ وهو ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ بخداعه لهما ﴿لِيرِيَهُمَا سَوَءَ تَهُمَا﴾ عوراتهما.

يا بني آدم احذروه، وانتبهوا له، حيث ﴿إِنَّهُ يَرَئِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ ذريته ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أنتم، وهم على صورهم الأصلية؛ للطافة أجسامهم، خاصة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

الشَّيْطَانِ أَوْلِيَائَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾ أي: أعواناً لهم، كما مكناهم من غوايتهم وإفسادهم. لذلك:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ أي: الذين لا يؤمنون ﴿فَحِشَةً﴾ بإغواء الشياطين لهم، ﴿قَالُوا﴾ متعللين في فعلها ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ ذلك: أن العرب كانت تطوف بالبيت عرايا، ويقولون لا تطوف في ثوب عصينا الله فيه؛ ويقولون ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا﴾ بذلك. فكذبهم الله وأنزل هذه الآية.

ثم قال ربنا: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنْ أَلَّاهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ التي تمارسونها، كما أنكم ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لأنكم لم تسمعه، لا من الله تعالى مشافهة، ولا من الأنبياء الذين تنكرون نبوتهم. ويا محمد:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَائَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

والمعنى: أن الله عز وجل بعد أن كذبهم فيما قالوه عنه، يأمر حبيبه ببيان الحقيقة الناصعة فيما يأمر به الله، حيث يقول: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ وهو العدل، وليس بالفاحشة، كما تزعمون، وقل لهم كذلك أقبلوا على الله، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ لله ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: أخلصوا له في سجودكم وطاعتكم، وصلاتكم، وقل لهم أيضاً: ﴿وَادْعُوهُ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك والضلالات.

وقل لهم: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم من العدم ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه أحياء بالبعث يوم القيامة. وتكونون في هذه الحالة بعد البعث فريقين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المسلمون، الطائعون.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ وهم الكافرون، ولكن لماذا حق عليهم الضلال؟
 ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ لهم، وأنصارًا وأعوانًا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي:
 غير الله تعالى، وفي الوقت ذاته ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ وهذا عين الضلال، أن
 يخدع المرء نفسه، ويحسب أنه على صواب، وهو ليس بذلك.

النداء الثالث: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا
 تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

وفي هذا النداء: إعلان عن شريعة الله، بإباحة الزينة، وستر العورات، ولبس الجميل،
 والتمتع بالطيبات دون إسراف.

والمعنى: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ للصلاة، أو الطواف.

وسبب نزول هذه الآية: أنَّ العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة - الرجال بالنهار، والنساء
 بالليل - ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها.

وأيضًا: كان بعض العرب.. لا يأكلون في أيام حجِّهم إلا قليلًا، ولا يأكلون لحمًا ولا
 دسمًا؛ يعظمون بذلك حجَّهم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: ما شئتم من
 الحلال ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم الحلال، أو أكل الحرام، أو الإفراط في الطعام.
 ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ في كل شيء من أمورهم.

ثم قال الله لحبيه ﷺ:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢)

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يشرعون لأنفسهم غير ما أنزل الله، على
 سبيل الإنكار عليهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ﴾ من اللباس بأنواعه، الذي
 يستر العورة، ويزين الإنسان؟ أي: هو حلال مباح، وكذلك: مَنْ حَرَّمَ ﴿الطَّيِّبَاتِ مِنَ
 الرِّزْقِ﴾ الذي أنعم الله به على عباده؟ أي: هي حلال مباح.

﴿قُلْ﴾ أيضًا يا محمد ﴿هِيَ﴾ أي: زينة الله، والطيبات من الرزق، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم، أو خاصة بهم، حيث يشاركون فيها الكفار، ولكنها
 ﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لهم، لا يشاركون فيها أحد.

﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ لِيَتَمَيَّزَ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يتدبرون، فيستفيعون بها.

وبعد أن بيّن ربنا الحلال، واستنكر على من حرّمه، شرع سبحانه في تبين الحرام فقال لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يشرّعون لأنفسهم، غير ما أنزل الله، مبيّنا لهم ما حرّمه الله، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي﴾ عليكم وعلى الدنيا كلها ما يلي:

﴿الْفَوَاحِشَ﴾ وهي: ما تفاحش وتزايد قبحه، كالزنا، وسائر الكبائر ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: سرّها وجهرها.

﴿وَالْإِثْمَ﴾ أي: المعصية المخالفة لأمر الله، بكل أنواعها، وأحجامها.

﴿وَالْبَغْيَ﴾ أي: على الناس وظلمهم ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: دون أن يكون دفاعاً عن النفس، أو ردّاً لعدوان.

﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: دليلاً وبرهاناً، وهذا: رد لقولهم وزعمهم أنهم أشركوا بأمر الله.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ من تحريم ما لم يحرم، أو تحليل ما حرّم، أو وصفه سبحانه بغير صفاته.

ثم يخوّف ربنا هؤلاء المشركين وينذرهم؛ لعلهم يتعظون، فيقول الله عز وجل:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤)

والمعنى: اعتدلوا واستقيموا وآمنوا أيها الكفار؛ فإن لكم نهاية، ولكم عقاب.

حيث إنه بصفة عامة: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: ميعاد معلوم، ونهاية محتومة، يكون فيها عذابهم على عنادهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ وحلّ عذابهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عنه ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، فآمنوا.

النداء الرابع: ﴿يَبْنِيْٓءَآدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥)

وفي هذا النداء: بيان أنَّ مَنْ ترك المحرّمات، وفعل الطاعات لا يحزن أبداً، ولا يخاف، وأما مَنْ كَذَّب واستكبر، فإنه من أصحاب النار، وذلك: في حالة بعث الرسل ﷺ.

والمعنى: ﴿يَبْنِيْٓءَآدَمَ﴾ عندما ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ يبلغونكم رسالة الله، ويدعونكم لتوحيده وعبادته، و ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ أي: يقرؤون عليكم كتبني، فإنكم تكونون بين فريقين:

الفريق الأول: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الشر منكم؛ خوفاً من الله، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ نفسه، والبلاد، وأسعد العباد؛ طاعة، هؤلاء: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما هو آتٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على شيء فات.

وأما الفريق الثاني فيقول عنه المولى عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦)

يعني: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ منكم يا بني آدم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بكتبنا ووحينا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ فلم يؤمنوا بها، وبدعوا لها، ويعملوا بما فيها، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الذين هم أهلها، وهي لهم و ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ باقون فيها أبداً، لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها، وهؤلاء: هم الظالمون.

ثم يكون حديث المولى سبحانه عن أظلم الظالمين، وما يحدث لهم، فيقول عز وجل:

﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَتِبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣٧)

والمعنى: لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فقال على الله ما لم يقله، أو كَذَّب قول الله، أو نسب الشريك أو الولد إليه، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يعني: كذب بالقرآن، ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُم مِّنَ الْكَتِبِ﴾ أي: يصلهم ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَتِبِ﴾ يعني: مما كتب وقسم لهم من: الأرزاق، والأعمار، والسعادة في الدنيا، أو الشقاء فيها إلى غير

ذلك، وهذا: مستمر ما داموا أحياء، إلى أن يحين موتهم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: ملك الموت وأعوانه، ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم، ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة تقيعًا، وتوبيخًا، وتأنيبًا، ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ليدفعوا عنكم آلام الموت، وشدة سكراته، والعذاب الآتي بعد؟ ﴿قَالُوا﴾ مجيبين للملائكة: لا نراهم، لقد ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا وتركونا في وقت الحاجة والشدة، وأدركوا أنهم كانوا يعبدون ما لا ينفع ولا يضر، ولذلك: ﴿شَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ واعترفوا عليها عند الموت، ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ يستحقون ما ينزل بهم من عذاب. وهنا:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِينَهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨)

والمعنى: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهؤلاء الذين افتروا الكذب على الله، وجعلوا له شركاء: ﴿ادْخُلُوا فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ﴾ من الجماعات والأحزاب، وأهل الملل، وأهل الضلالات، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ ودخلت ﴿فِي النَّارِ﴾.

وكانوا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ في النار ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ في الضلال والانحراف، ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: تلاحقوا فيها، واجتمعوا في دركاتهما كلهم، السابقون واللاحقون، والسادة منهم والأتباع، كان الحوار التالي: ﴿قَالَتْ أُخْرِينَهُمْ لِأُولِهِمْ﴾ أي: قال الأتباع عن سادتهم ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ في الدنيا، حتى صرنا هنا ﴿فَفَاتَيْنَهُمْ﴾ يا ربنا، جزاء لهم على إضلالهم لنا ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفًا لا ينتهي ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿النَّارِ﴾، ﴿قَالَ﴾ تعالى مجيبًا لهم ﴿لِكُلِّ﴾ منكم ومنهم ﴿ضِعْفٌ﴾ مضاعف من العذاب ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ مقداره، لا أنتم ولا هم.

هل سكت أولاهم لأخراهم في هذا الموقف، لا:

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجْتَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩)

يعني: أجابت ﴿أُولَئِهِمْ﴾ أي: السادة ﴿لِأَخْرَجْتَهُمْ﴾ وهم التابعون مشافهة ومخاطبة، قائلة: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ لأنكم لم تكفروا ولم تضلوا بسببنا، بل باختباركم، ونحن وأنتم في العذاب سواء، وهنا يقول الله تعالى للجميع: ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ﴾ أنتم وهم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: بكسبكم وعملكم وكفركم، عدلاً مِنَّا في معاملتكم.

وبعد بيان ما يكون بين الملائكة والكافرين عند الموت، وكذلك: بيان ما يكون بين الكافرين وبعضهم البعض يوم القيامة، يكون الإخبار عنهم بما يلي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١)

يقول تعالى مبيّناً جزاء: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ بآيات الله ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ فلم يؤمنوا بها، وعاندوا حتى ماتوا: وهذا الجزاء على النحو التالي:
أولاً: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: إذا ماتوا وصعدت الملائكة بأرواحهم إلى السماء، لا تُفَتَّحُ لهم، كما تُفَتَّحُ لأرواح المؤمنين أبواب السماء، فيهبط بها الملك إلى أسفل سافلين.

ثانياً: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أَبَدًا﴾، وذلك التأييد لقوله تعالى ﴿حَتَّى يَلِجَ﴾ أي: يدخل ﴿الْجَمَلُ﴾ بحجمه الكبير وهو حي ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ثقب الإبرة الضيق، وهذا لا يكون أبداً، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين كذبوا بآيات الله، واستكبروا عنها، فلم يؤمنوا، وصاروا مجرمين في حق أنفسهم وغيرهم.

ثالثاً: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ يعني: فراش، ولهم فيها ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية من نار جهنم كذلك، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي﴾ بهذا الجزاء الفظيع ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر.

وبعد التفصيل السابق في أحوال المكذبين، وجزائهم، يكون الإخبار عن المؤمنين المصدقين، حيث يقول المَلِكُ العَلامُ:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢)

يعني: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قدر طاقتهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ومعنى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا نكلفها ما فيه مشقة وحرَج، حتى لا يفهم فاهم أن دخول الجنة متوقَّف على ما لا يمكن عمله.

هؤلاء يقول عنهم ربهم:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

والمعنى: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات: دخلوا الجنة طاهرين، مطهرين؛ حيث ﴿نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حقد كان بينهم في الدنيا، ولم يتبقَّ بينهم إلا المحبة والتَّوَادُّ والتعاطف، وهذا: من تمام سعادتهم في الجنة، التي ليس فيها إلا السلام الحسي والمعنوي، ولتتم لهم سعادة المنظر ﴿تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهِمُ﴾ أي: من تحت قصورهم التي يقيمون فيها ﴿الْأَنْهَارُ﴾.

وهؤلاء: قد ﴿قَالُوا﴾ عند دخولهم الجنة، واستقرارهم في منازلهم وقصورهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ العمل، الذي هذا ثوابه، كما اعترفوا بفضل الله عليهم، وإنعامه بهم، حيث قالوا كذلك: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: لولا هداية الله لنا: ما اهتدينا، وما صرنا إلى ما نحن فيه من نعيم مقيم.

ثم قالوا كذلك: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا﴾ في الدنيا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي أخبرونا به، ودعونا إليه؛ حيث حصل لنا ثوابه، وننعم به الآن.

وبعد ذلك ﴿تُودُوا﴾ أي: نودي على أهل الجنة بهذا النداء: ﴿أَنْ تَلِكُمْ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا﴾ التي كانت الرسل تعدكم بها في الدنيا ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ يعني: آلت إليكم، وصارت في ملككم بلا تعب ولا مشقة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم الصالحة.

ولأنه من تمام النعمة: أن ترى عِدْوَ العقيدة الصحيحة في النار، وأن يراك في الجنة كان ما يلي:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

والمعنى: أنه بعد استقرار أهل الجنة في الجنة، واستقرار أهل النار في النار ﴿وَنَادَىٰ﴾ أي: يقول ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يا ﴿أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ﴾ لقد ﴿وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ على السنة رسله من الثواب على الإيمان به، وطاعته، واتباع رسله ﴿حَقًّا﴾، ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب على كفركم واستكباركم ﴿حَقًّا﴾؟ ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ أي: قال أصحاب النار مجيبين أصحاب الجنة نعم وجدنا ذلك ﴿حَقًّا﴾، وهنا وفي هذه اللحظة: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ مناد، يسمعه الجميع ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

وهم: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: يريدون دين الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: منحرفة عن الحق والصواب، بتغييرها وتحريفها، ﴿وَهُمْ﴾ في الوقت ذاته ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ أي: الدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ﴿كَفِرُونَ﴾.

ويلاحظ: أنه قد اجتمع فيهم الصّدّ عن سبيل الله، وإرادة الإفساد، والكفر باليوم الآخر. وقد يظن ظان: أن الجميع مع بعضهم البعض، ولكن الحقيقة غير ذلك، حيث يقول المولى مصورًا هذا المشهد البديع:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يعني: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين أصحاب الجنة، وأصحاب النار ﴿حِجَابٌ﴾ يعني: حاجز، يمنع وصول أثر كل من الجنة أو النار إلى الأخرى.

وهذا الحجاب هو: الأعراف، الذي هو سور الجنة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَّهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وهنا: يظهر فريق ثالث غير أصحاب الجنة، وغير أصحاب النار، وهم أهل الأعراف، يقول تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ يعني على هذا السور ﴿رِجَالٌ﴾ استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم يدخلوا النار، ولم يدخلوا الجنة بعد، هؤلاء الرجال: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة وأهل النار ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي: بعلاماتهم: فأهل الجنة بيض الوجوه من النعيم، وأهل النار سود الوجوه من العذاب.

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: نادى أهل الأعراف ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ قائلين لهم: ﴿أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلمتم من الآفات ودخول جهنم، وحييتهم بتحية أهل الجنة. ثم يخبر الله تعالى عن أهل الأعراف هؤلاء بقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ بعد ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها.

وبعد أن ينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة، ويسلمون عليهم، ماذا يحدث؟ يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ لِقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ والمعنى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ﴾ أي: إذا وقعت أنظار أصحاب الأعراف من غير قصد منهم ﴿لِقَاءَ﴾ جهة ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا ما هم فيه، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِي النَّارِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أصحاب النار.

وبعد أن طلبوا النجاة من النار لأنفسهم: توجَّهوا باللوم والتقريع لأهل النار:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

يعني: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من أهل النار كانوا عظماء في الدنيا، فينادونهم، وهم على السور بأسمائهم، يا فلان، يا فلان، كيف يعرفونهم؟ ﴿يَعْرِفُونَهُمْ﴾

يَسْمَعُهُمْ ﴿٤٩﴾ أي: بعلاماتهم، التي يُعَلِّمون بها في جهنم، فإذا عرفوهم، ونادوا عليهم ﴿قَالُوا﴾ لهم تقرّيعاً وتوبيخاً ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ يعني: لم يُغْنِ عنكم، ويدفع عنكم العذاب ما كنتم فيه من الحُرَّاس، أو الأصحاب، أو الأولاد، أو ما جمعتموه من الأقوال، وما وصلتكم إليه من الجاه والمناصب، وكذلك: ما أغنى عنكم، ودفع عنكم العذاب ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ به على الناس، وعلى الخضوع للحق، والإيمان، لقد زال كل شيء، ولم يبقَ لكم إلا الذل والعار والنار.

ثم يقول أهل الأعراف لأصحاب النار، وهم يشيرون إلى ضعفاء المسلمين ودعاتهم الذين ظلموا، وتحملوا الأذى:

﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

يعني: ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ﴾ احتقرتموهم، وعدّبتموهم، و﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ على عدم دخولهم الجنة، وأن ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ منه؟

انظروا إليهم، وقد قيل لهم: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بفضل الله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيما هو آتٍ ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على شيء فات.

وبعد أن عرف أصحاب الأعراف: أصحاب الجنة وأصحاب النار، وبعد أن نادوا على كل من الفريقين، وتحدثوا معهما، يَصُوِّرُ الله تعالى بعض صرخات أهل النار، فيقول جل وعلا:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥١﴾

يعني: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وهم في شدة العذاب ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ قائلين لهم: قد احترقنا، ونحن في شدة العطش ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ الذي تشربونه، وتتغنمون به ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام، فيقال لهم: أجيئوهم، ﴿قَالُوا﴾ أي: أهل الجنة لأهل النار ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا﴾ أي: منعهما ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ثم يصف ربنا هؤلاء الكافرين بالصفات التي أدخلتهم النار، قائلاً:

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١)
 يعني: هؤلاء الكافرون، هم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فحرموا وحللوا ما شاءوا بأهوائهم، أو اتخذوا اللهو واللعب ديناً لهم، ﴿وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزخرفها، ومتاعها، وشغلتهم بالطمع في طول العمر، وحسن العيش، ونيل الشهوات، فنسوا الآخرة، ولم يؤمنوا بالله تعالى.

لذلك: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ﴾ أي: نفعل بهم فعل الناسي بالمنسي، من عدم الاعتناء بهم، وتركهم في النار يُعَذَّبُونَ، ﴿كَمَا نَسُوا﴾ هم ﴿لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: نسوا العمل للقاء يومهم هذا، وكذلك: نفعل بهم فعل الناسي لهم بتركهم في عذاب جهنم، بسبب ﴿مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: ينكرون أن الآيات من عند الله. وبهذا: يتبين أن الذي أدخلهم النار حب الدنيا، ونسيان الآخرة، والتكذيب بآيات الله.

ثم يخبر تعالى أنه أعذر إلى هؤلاء الكفار، حيث أرسل إليهم الرسول ﷺ، ومعه القرآن، فيه تفصيل كل شيء، حيث يقول جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)
 يعني: ما عذبنا هؤلاء الكافرين، وما نسيناهم في العذاب، إلا بعد أن ﴿جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ وهو القرآن، وقد ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ وبَيَّنَّا فيه ما قال الناظم:

حلال، حرام، محكم، متشابه بشير، نذير، قصة، عظة، مثل
 ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالمين بما فيه، مما يُصْلِح الخلق ويُسَعِدُهم، كما أنه أي: القرآن ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، فينتفعون بما فيه من الهدى والرحمة، وغير ذلك.

فهل آمنوا؟ كلا. ولكن ماذا يمنعهم من الإيمان، بل ماذا ينتظرون؟

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَةٍ فَيشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٣)

يعني: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا نَأْوِيَهُ﴾ أي: إلا عاقبة ما وعد الله فيه من البعث والنشور والحساب والعقاب، ومجازاة كل نفس بما كسبت، حيث إن هذه الأمور: هي التي تؤول إليها المواعيد المذكورة في القرآن الكريم، على كل حال:

﴿يَوْمَ يَأْتِي نَأْوِيَهُ﴾ وتحدث هذه الأشياء، كما وضح القرآن، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ أي: أهملوا القرآن، وتركوا العمل به، بل أنكروا أنه من عند الله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وهم في الدنيا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ يعني: يعترفون بذلك بعد مشاهدتهم ومعابنتهم للعذاب الذي أخبروا به، ولكن لا ينفعهم هذا الاعتراف والإقرار، ثم يقولون متسائلين: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾ عند ربنا ﴿فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أن يخفف عنا هذا العذاب، ﴿أَوْ﴾ هل ﴿نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا، مرة أخرى ﴿فَنَعْمَلْ﴾ صالحاً ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الكفر والتكذيب.

ولكن هل يفيدهم هذا التحسر والندم والتمني؟ كلا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وأضاعوها ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الأكاذيب، ويعبدون من الأصنام. ثم يكون النموذج على هذا الكتاب، الذي فصل الله فيه بعلم في آية، تذكر بالله وقدرته عز وجل، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

والمعنى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ الذي ينبغي الإيمان به، والخضوع له، والعمل بتشريعه: هو ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، ويلاحظ: أنه سبحانه لو شاء لخلقهن في لمحة؛ لأنه هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون، ولكن لم يفعل ذلك: لتعليم خلقه التثبت، والتمهل والأناة في الأمور، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بكمال ذاته، ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ﴾ أي: يغطي كلا منهما الآخر، بقدرته سبحانه وتعالى، ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ أي: يطلب كل منهما - الليل والنهار - ويجري وراء الآخر

بسرعة، وهو الذي خلق ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾ أي: مذلات، طائعات ﴿بِأَمْرٍ﴾ أي: بقدرته.

﴿أَلَا لَهُ﴾ لا لغيره ﴿الْخَلْقُ﴾ جميعاً ﴿وَالْآفَرُ﴾ كله.
﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ تعظيم وتمجد وارتفع ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كلهم، أي: خالقهم، وسيدهم، ومربيهم.

وبعد أن عرفنا ربنا قدرته وعلمه، يرشدنا إلى حسن عبادته، فيقول جل جلاله:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾
يعني: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اعبدوا ربكم ﴿تَضَرُّعًا﴾ في خشوع وتذلل
﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: سرًا.
﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين لما أمروا به، ونهوا عنه، في كل شيء.

كما يرشدنا إلى عدم الإفساد، وكذلك إلى الدعاء؛ طلباً للرحمة، فيقول جل وعلا:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
يعني: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعصية، أو بالشرك، أو بالظلم ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بالطاعة، أو بالتوحيد، أو بالعدل.. إلخ، ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا﴾ من عقابه
﴿وَطَمَعًا﴾ في رضوانه.

والمعنى: أحسنوا بإصلاح البلاد، وإسعاد العباد، وطلب الرحمة من رب العالمين، لتنالوا رحمة الله، حيث ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن رحمته ما يتجلى في الآية التالية:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثِقَالًا سَقَنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
يعني: ﴿وَهُوَ﴾ الله القادر ﴿الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا﴾ أي: بمبشرة بمجيء
المطر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: أمام الغيث، وهو أجل نعم الله تعالى.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ حملت الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء ﴿سُقْنَهُ﴾ بقدرتنا وحكمتنا ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ليس فيه ماء؛ ولا حياة فيها، ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بهذا البلد من السحاب ﴿الْمَاءَ﴾ فشرب أهله، ورويت أرضه، ودبت فيها الحياة، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بهذا الماء ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ألوانًا وأشكالًا متعددة متنوعة، بقدرتنا. وهكذا، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإخراج للنبات من الأرض ﴿يُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم أحياء؛ للبعث والنشور والحساب، وكان هذا المثل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤمنون بالله تعالى، وتستعدون ليوم البعث بالعمل الصالح.

ثم يضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر بالبلد الطيب، والبلد الخبيث، فيقول الله عز وجل:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾
كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

والمعنى: والمؤمن: الذي ينزل القرآن على قلبه فينتفع به، وتظهر منه الطاعات والعبادات والأخلاق الحميدة: يشبه ﴿الْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الذي ينزل عليه المطر، ف﴿يَخْرِجُ نَبَاتُهُ﴾ الحسن ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾.

وأما الكافر الذي لا ينتفع بالقرآن إذا سمعه، بل يزيده عنادًا وكفرًا، وسوء خلق: فهو يشبه البلد ﴿الَّذِي خَبثَ﴾ تراه، حيث ﴿لَا يَخْرِجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ بعسر وصعوبة ومشقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ التمثيل والتقريب ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ ونُبَيِّنُهَا ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الله، فيؤمنون.

بعد أن وضّحت الآيات السابقة موقف المؤمنين، وما أعدَّ الله لهم من نعيم، وموقف الكافرين، وما أعدَّه الله لهم من عذاب !! تأتي آيات تقص علينا قصص أمم أنزل الله عليها الهدى، وتبين لنا موقف هذه الأمم من هذا الهدى، وكيف عوقبت عندما رفضته.

ومن هذا القصص أولاً: قصة قوم نوح عليه السلام، حيث يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٩﴾

والمعنى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله،

﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ يَنْقَوْمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴿وَحْدَهُ﴾ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴿إِنْ ظَلَلْتُمْ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ﴾ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿وهو يوم القيامة، فآمنوا. فماذا كان جوابهم؟﴾

﴿قَالَ أَلَمَّا مِنْ قَوْمِهِ﴾ إِنَّا لَنَزَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾
يعني: ﴿قَالَ أَلَمَّا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الرؤساء، الذين يملأون العيون أبهةً، والصدور هيبةً، في الجواب على دعوته: ﴿إِنَّا لَنَزَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بعيدٍ عن الصواب والحق. وهكذا في كل عصر: يزعم الكافرون أن أهل الهدى في ضلال.
وهنا رد عليهم نوح عليه السلام:

﴿قَالَ يَنْقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣﴾
يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم نوح عليه السلام مترفقا بهم ﴿يَنْقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ وهي أعم من الضلال، وهذا أولاً.

ثانياً: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم والرسالة تنافي الضلال.
ثالثاً: دورى ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ إليكم، أدعوكم فيها للإيمان به، وتوحيده وترك ما أنتم عليه من فساد.
رابعاً: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ بالخير، مع تعريفكم وجه المصلحة، بخلوص نية، ورغبة في النجاة لكم من كل مكروه.
خامساً: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ وعذابه ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم؛ حيث لم تسمعوا عن قوم عذبوا قبلاً.

ثم قال: ﴿أَوْعِبْشُمُ﴾ أي: أصابكم العجب والاستغراب، بسبب ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ وموعظة ﴿مَنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ويخوفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا، ﴿وَلِنُنَقِّوْا﴾ غضب الله، بطاعته، والإذعان لتعاليمه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ إذا آمنتم بالله، بسبب تبليغ رسالات ربي إليكم.

ماذا كان موقف قومه من هذه الدعوة الواضحة الشفوقة؟

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾

يعني: لم يستجيبوا لدعوته، بل لم يفكروا فيها أصلاً، حيث يقول ربنا بالفاء المعقبة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: مباشرة وبسرعة، واستمروا على تكذيبه في دعوى النبوة، وما نزل عليه من الوحي الذي بلغه إليهم، وأنذرهم بما فيه من تهديد لهم وتخويف، وجاء العذاب بالطوفان:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: في السفينة، أنجيناهم من الغرق، ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ في ماء الطوفان ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ واستمروا على هذا التكذيب، ولم يتوبوا عنه، ويؤمنوا بالله، ويتبعوا نوحاً عليه السلام.

وكان ذلك العذاب، وهذا الإغراق، حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق، لا يبصرونه، وغير مستعدين لقبوله.

وهكذا: كانت عاقبة المكذبين من قوم نوح عليه السلام بالإغراق في ماء الطوفان.

ومن هذا القصص ثانياً: قصة عاد قوم هود عليه السلام، يقول الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ والمعنى: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله. ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ يستحق أن يعبد.

ثم قال لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، وتخافون عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة؟ فآمنوا. فماذا كان جوابهم؟

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

يعني: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: الرؤساء، الذين يملأون العيون أُبْهَةً، والصدور هيبَةً ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واستكبروا ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ في الجواب على دعوته ﴿إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: في جهالة، وسخافة عقل، حيث تهجر دين قومك وتتركه، إلى دين آخر، وتدعوننا إليه أيضًا، ﴿إِنَّا﴾ كذلك ﴿لَنُظُنُّكَ﴾ زيادة على جهالتك ﴿مِنْ الْكَذِبِينَ﴾ في رسالتك، التي تدعيها.

وهكذا في كل العصور: يزعم الكافرون أن أهل الهدى في جهالة وتخلّف، وتفاهة عقل. وهنا ردّ عليهم هود عليه السلام:

﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦٩﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام، مُتَرْفِّقًا بِهِمْ ﴿يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ كما ترعمون، وهذا أولاً.

ثانيًا: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم، والرسالة تنافي السفاهة، وسخافة العقل.

ثالثًا: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ إليكم، أدعوكم فيها للإيمان به، وتوحيده وترك مَنْ أُنْتَمِ عليه من فساد.

رابعًا: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أنصحكم بالخير، وأعرّفكم وجه المصلحة، بخلوص نية، ورغبة في النجاة لكم من كل مكروه.

ثم قال: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ﴾ أي: أصابكم العجب والاستغراب، بسبب ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ وموعظة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾؟

يا قوم ﴿أَذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض ﴿مِنْ بَعْدِ

قَوْمٍ نُوحٍ ﴿٧٠﴾ وكأنه يذكّرهم - في الوقت ذاته - بما حدث لقوم نوح لما عاندوا نبيهم، وكذبوا دعوته، كما أن الله تعالى ﴿زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضَاطَةً﴾ أي: قوة وطولاً ومالاً. لذلك: ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ﴾ نعمه، وآمنوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ تفوزون برضوانه، ودخول جنانه.

ماذا كان موقف قومه من هذه الدعوة الواضحة، الشفوفة؟

﴿قَالُواْ اٰحْسِنَا لِنَعْبُدَ اللّٰهَ وَحْدَهُ. وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَاْ فَاٰنَا بِمَا نَعُدُّاْ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ (٧١)

يعني: لم يستجيبوا لدعوته؛ بل تهكّموا به وبدعوته، حيث ﴿قَالُواْ﴾ له ﴿اٰحْسِنَا لِنَعْبُدَ اللّٰهَ وَحْدَهُ﴾ وتطالبنا أن ﴿نَذَرَ﴾ يعني: نترك ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَاْ﴾ من الأصنام، وبعد أن سخرنا منه، وأنكروا عليه ما دعاهم إليه: تحدّوه قائلين: ﴿فَاٰنَا بِمَا نَعُدُّاْ﴾ به من العذاب ﴿اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ في أن العذاب سينزل بنا لو لم نؤمن بربك، ونتبع دعوتك.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعِزْبٌ ۖ اَتُجَدِّلُونَنِي فِيْٓ اَسْمَآءِ سَمِيْتُمْوهَا اَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ ۚ فَاَنْظُرُوْا آِنِّيْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ﴾ (٧٢)

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ أي: وجب وثبت ﴿عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ أي: عذاب ﴿وَعِزْبٌ﴾ يعني: سخط منه تعالى عليكم.

ثم قال لهم منكراً عليهم عدم استجابتهم لدعوته، وطلبهم العذاب، وتحديهم له، ومجادلتهم إياه: ﴿اَتُجَدِّلُونَنِي فِيْٓ اَسْمَآءِ﴾ أصنام، ليس فيها من معنى الألوهية شيء، وأنتم الذين ﴿سَمِيْتُمْوهَا﴾ أي: اخترعتموها من عند أنفسكم وأهوائكم وشياطينكم، ﴿مَا نَزَّلَ اللّٰهُ بِهَا﴾ أي: بعبادتها ﴿مِّن سُلْطٰنٍ﴾ أي: دليل أو برهان لكم في ذلك تتعلّلون به، وأنتم تعبدونها.

ثم قال لهم مهدداً: ﴿فَاَنْظُرُوْا﴾ العذاب الذي تطلبونه ﴿آِنِّيْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ﴾ وقوع ذلك العذاب بكم؛ بسبب تكذيبكم.

وجاء العذاب، وأُرسِلت عليهم الريح العقيم، التي لا تثير فيها؛ حيث إنها لا تحمل المطر، ولا تفتح الشجر، وأهلكتهم هذه الريح العقيم، بقدره الله تعالى. أما عاد عَالِيَةَ:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢)

يعني: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ والمؤمنين ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ من عذاب هذه الريح العقيم ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾، وبهذا: ﴿قَطَّعْنَا دَايِرَ﴾ يعني: أنهينا تمامًا على ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ودَّمرناهم عن آخرهم، واستأصلناهم من الوجود. وذلك: لأنهم ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وكذلك ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسبب عدم إيمانهم بالله.

وهكذا كانت عاقبة المكذبين من عاد، قوم هود عَالِيَةَ بالريح العقيم. ومن هذا القصص ثالثاً: قصة ثمود قوم صالح عَالِيَةَ، يقول الله تعالى:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَنكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (٧٣)

والمعنى: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ يدعوهم إلى التوحيد، وعبادة الله، ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يستحق أن يعبد منكم.

فعاندوه، وكذبوه، وظلَّ يدعوهم، وينصحهم، وهو يصبر على أذاهم، حتى طلبوا منه آية تدل على صدقه في دعواه، وهذه الآية التي طلبوها ناقة: يخرجها لهم من صخرة عيَّنها، وتحققت الآية وخرجت الناقة، على الوجه الذي طلبوا.

وهنا قال صالح عَالِيَةَ لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ بتكوينه المباشر، بلا صُلب ولا رحم، قال لها الله كوني: فكانت، كما ترون، وهي لكم ﴿آيَةٌ﴾ على صدقي، كما طلبتم، ﴿فَذَرُوهَا﴾ أي: اتركوها ﴿تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ وتشرب من ماء الله، ولا تتعرضوا لها بمنع عن هذا أو ذاك.

﴿وَلَا﴾ كذلك ﴿تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ بأذى، أو ذبح؛ إكرامًا لآية الله، ولو تعرّضتم لها بمنع، أو أصبتموها بسوء ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم وعظهم وذكرهم بمن كان قبلهم، حيث قال:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْحِدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِفُونَ الْجِبَالَ يُؤْتَا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤)

والمعنى: ﴿و﴾ يا قوم ﴿اذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض ﴿مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ قوم هود عليه السلام.

وكأنه - بهذا - يذكرهم بما حدث لقوم هود لما عاندوا نبيهم، وكذبوا دعوته.

﴿و﴾ كما أن الله تعالى ﴿بَوَّأَكُمْ﴾ أسكنكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مكانًا بين الحجاز والشام ﴿تَنْحِدُونَ﴾ أي: تعملون وتصنعون ﴿مِنْ سُهُولِهَا﴾ أي: في سهولها ﴿قُصُورًا﴾ تقيمون فيها صيفًا، ﴿وَتَنْحِفُونَ الْجِبَالَ﴾ أي: في الجبال ﴿يُؤْتَا﴾ تقيمون فيها شتاء.

﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمة هذه، وآمنوا به سبحانه، واشكروه عليها، ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تفسدوا في أرض الله، وتتعبدوا خلق الله، بسبب عدم إيمانكم بالله، فإذا تذكّرتم نعم الله عليكم، ولم تفسدوا في الأرض، وآمنتُم بالله، تفوزون برضوانه، ودخول جناته.

فماذا كان موقف قومه من هذه الدعوة الواضحة الشفوقة؟

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ لَكُمْ مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٧٦)

يعني: لم يستجيبوا لدعوته، بل تندّروا به وبدعوته، وأكثر من هذا لم يخاطبوه، كما خاطبهم، بل توجهوا بالخطاب للمستضعفين الذين آمنوا معه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: الرؤساء، الذين يملأون العيون أبهة، والصدور هيبة، وهم ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وكفروا ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ في الجواب على دعوته، قالوا: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ فقط دون من كفر، استهزاء ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ إليكم؟ قالوا أي: المؤمنون الضعفاء، نعم نعلم أن صالحًا مرسل من ربه، و﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ﴾ من ربه ﴿مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وكفروا لهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ أي: بما أرسل به صالح ﴿كَافِرُونَ﴾.

ولم يكتفوا بالقول، والاستهزاء فقط، بل أتبعوا القول الفعل، حيث يقول تعالى عنهم:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧)

يعني: سخروا منه، ومن الذين آمنوا معه، وأنكروا عليه ما دعاهم إليه، وتحذوه.

وجاءت الآية، التي طلبوها، ورأوا الناقة، وشربوا من لبنها، ولكنهم ازدادوا كفرًا وطغيانًا ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ التي قال لهم نبيهم عنها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، حيث ذبحها واحد منهم، بأمرهم، ورضاهم.

﴿و﴾ بهذا ﴿عَتَوْا﴾ تكبروا ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ ولم يؤمنوا به، ولم يخضعوا له، ﴿و﴾ ازدادوا عنادًا وتحديًا، حيث ﴿قَالُوا﴾ لنبيهم: ﴿يُصْلِحُ﴾ استهزاء به، وازدراء لدعوته ﴿أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ به من العذاب على قتلها ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وجاءهم العذاب من الله:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٧٨)

يعني: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ زلزلة شديدة من الأرض، وصيحة عنيفة من السماء، فماتوا جميعًا، وهم في بيوتهم، يقول تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي: في بيوتهم ﴿جِثِيمِينَ﴾ يعني: باركين على ركبهم ميتين.

وأما صالح ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾:

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ ﴿٧٩﴾

يعني: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ صالح، وتركهم موتى، هلكى، ﴿وَقَالَ﴾ توبيخًا وتقريعًا، وليكون كلامه موعظة ودعوة باقية لمن يأتي من بعده ليعتبر: ﴿يَاقَوْمُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾ إليكم بالخير، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ لتؤمنوا ﴿وَلَكِنْ﴾ أنتم وأمثالكم ﴿لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ ولذلك حدث لكم ما حدث، ونزل بكم ما نزل، مما تستحقون؛ لعدم إيمانكم، وهكذا كانت عاقبة المكذبين من قوم صالح عليه السلام أن أخذتهم الرجفة، وهي الزلزلة والصيحة الشديتان.

ومن هذا القصص رابعًا: قصة قوم لوط عليه السلام:

ويلاحظ: أن الله عز وجل بعد أن قص علينا قصة ثمود، وقوم صالح، يقص علينا بعدها - مباشرة - قصة قوم لوط، مع أنه عليه السلام من المستجيبين لإبراهيم عليه السلام الذي لم تذكر الآيات قصة قومه، بل تدخل مباشرة إلى قصة قوم لوط.

ذلك: حيث إن السورة تتحرى - كما يقول صاحب الظلال: مصارع المكذبين، وقوم إبراهيم لم يهلكوا؛ لأنه لم يطلب من ربه هلاكهم، بل إنه ﴿أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ [مريم: ٤٩]. وفي قصة لوط عليه السلام، يقول الله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾

يعني: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد، وعبادة الله، وترك الفاحشة، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ مستنكرًا عليهم فعلهم، يا قوم ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ في أدبار الرجال، وهي فعلة سيئة قبيحة ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ أي: ما عملها قبلكم ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أبدًا ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من الإنس والجن.

ثم قال لهم: أنتم أول من فعلها، حيث:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

يعني: إنكم تجامعون الرجال ﴿شَهْوَةً﴾ بهيمية ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ اللائي هُنَّ محل الشهوة الحقيقية.

هذا منتهى التوبيخ على هذا الفعل الخبيث؛ لأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان، وركَّب فيه شهوة النكاح؛ لبقاء النسل، وعمران الدنيا، وجعل النساء محلاً للشهوة، وموضعاً للنسل، فإذا تركهنَّ الإنسان، وعدل إلى غيرهنَّ من الرجال: فكأنما أسرف في ظلمه وبغيه؛ لأنه وضع الشيء في غير محله.

لذلك قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون الحلال إلى الحرام. فماذا كان جوابهم، يقول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْظَهُرُونَ﴾ (٨٢)

يعني: ﴿وَمَا كَانَتْ﴾ لم يكن ﴿جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ المستكبرين، عليه ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ لبعضهم البعض ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ أي: لوطاً ومَن معه على دينه ﴿مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ حيث ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْظَهُرُونَ﴾.

وقد قالوا ذلك: تجبراً وطغياناً واستهزاءً، وهذه طبيعة المستكبرين: يهزءون من أهل الطهر، والصلاح، ويأمرون بإبعادهم عن مواقع التأثير والإصلاح. وكتب الله عليهم العذاب والهلاك، ولكنه نجاً لوطاً والذين آمنوا معه من هذا العذاب، حيث يقول:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣)

يعني: ولَمَّا جاء العذاب، ونزل بقوم لوط - كما سيأتي عنه الحديث - ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: لوطاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ وهما فقط ابتناه ﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ﴾ الكافرة، ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الباقيين في العذاب.

ولكن ما هذا العذاب الذي نزل بقوم لوط؟ يقول الله تعالى:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤)

يعني: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من السماء ﴿مَطَرًا﴾ عجيبيًا، بيَّنه الله تعالى في آية أخرى بقوله: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

﴿فَانْظُرْ﴾ أيها العاقل، واعتبر بحالهم، وابتعد عن أفعالهم ﴿كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ؟ وهكذا كانت عاقبة ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ من قوم لوط عليه السلام، أن أمطر الله عليهم ﴿... حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود ٨٢، ٨٣]

ومن هذا القصص خامسا: قصة أهل مدين، قوم شعيب عليه السلام، يقول الله تعالى:

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقَوِرَ عِندُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

والمعنى: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَنْقَوِرَ﴾ أعبدوا الله وحده ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ يستحق أن يُعبد منكم، فعاندوه، وكذبوه، وظلَّ يدعوهم، وينصحهم، وهو يصبر على أذاهم، حتى طلبوا منه آية تدل على صدقه في دعواه، وتحققت الآية وجاءت.

وقال لهم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: آية، معجزة، بيِّنة واضحة على صدقي لكم، وكل رسول له معجزة أو معجزات.

ولكن القرآن الكريم: لم يبيِّن هذه الآية، وسكت عنها، ونحن بدورنا نسكت عما سكت عن بيانه القرآن.

ثم قال لهم: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: أتموه فيما بينكم؛ حيث كانت عاداتهم.. نقص الكيل والميزان، وهي آفة خطيرة، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تُنقصوا الناس حقوقهم وأقذارهم، حيث كانت هذه عاداتهم، بخس الحقوق، وهي: آفة خطيرة، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بالكفر والمعاصي، والظلم والسرقات..... إلخ؛ حيث كانت هذه عاداتهم: الإفساد في الأرض، وهي آفة - كذلك - خطيرة.

﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن أردتم الإيمان، فبادروا إليه، والتزموا بهذه التعاليم. ثم قال لهم كذلك:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرْتُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦)

يعني: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ تخوفون من يريد شعبيًا، وتقولون له: إنه كذاب، ارجع حتى لا يفتنك عن دينك، فإن لم ترجع، وآمنت به: قتلناك، وبذلك كنتم ﴿تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ وتصرفونهم عن الإيمان، ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ أي: الطريق إلى الله ﴿عِوَجًا﴾ معوجة منحرفة.

﴿وَاذْكُرُوا﴾ يا قوم نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ عددكم ﴿فَكَذَّبْتُمْ﴾ الله، وبارك في نسلكم، حتى كثرت أعدادكم، لتؤمنوا به وتشكروه على هذه النعمة، ﴿وَأَنْظَرْتُمْ﴾ يا قوم ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهي الهلاك والدمار؛ لتعتبروا، فتؤمنوا، ولا تفسدوا؛ فينجيكم الله من الفساد وأخطاره.

ثم قال لهم مهديًا:

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

يعني: إن كانت الدعوة التي أتيتكم بها، ودعوتكم إليها، انقسم الناس فيها فريقان: طائفة آمنت، وطائفة لم تؤمن.

﴿فَاصْبِرُوا﴾ وانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين، فيظهر المحق من المبطل.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأن حكمه عدل وحق.

وفي الآية: بيان أن الدعوة تقسم الناس، أو ينقسم معها الناس، إلى فريقين: أهل حق، وأهل باطل.

كما أن الآية فيها: وعد للمؤمنين بالفوز والنصر، ووعيد للكافرين بالخسران والهزيمة. فماذا قال الملا من قومه؟ وماذا كان موقفهم؟

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْبِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَرِهِينَ﴾ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي

مَلِيكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبُّنا أَفْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَانِحِينَ ﴿٨٩﴾

يعني: لم يستجيبوا لدعوته، ولم يردوا على حجته، بل لجأوا إلى التخويف والتهديد حينما عجزوا عن الرد، وبعُدوا عن الهداية.

حيث ﴿قَالَ أَلَمْلَأْ﴾ أي: الرؤساء والكبار فيهم، الذين يملأون العيون أبهة، والصدور هيبة، وهم ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وكفروا ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ في الجواب على دعوته، أمامك واحد من أمرين:

١ - ﴿لنُخْرِجَكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ وتبتعدون عنا

بدعوتكم هذه.. !!

٢ - ﴿أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ إن أردتم العيش بيننا، والبقاء على ديننا!!

قال لهم شعيب عليه السلام: أخرجونا من ديارنا، أو تجعلونا نكفر معكم، حتى ولو ﴿كُنَّا كَرِهِينَ﴾ كنا كارهين لهذا وذاك؟ ثم أضرَبَ صفحاً عليه السلام عن الرد على قضية الطرد من الديار، واهتم بقضية كفرهم، حيث قال: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ أي: كفرنا مثل كفركم ﴿بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا﴾ وهدانا إلى الإيمان، ف ﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

وفوق كل هذا ما يتصور أبداً، وما يصح، وما ينبغي، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ بحال من الأحوال، ولا في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنا﴾ ذلك؛ حيث إن الكائنات كلها بمشيئته سبحانه، خيرها وشرها.

﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي: هو عالم بكل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل، وقلوبهم كيف تتقلّب، ومرد الأمر كله إليه.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان، ويحمينا من كيد الأعداء.

ثم أعرض عنهم وتوجّه إلى ربه عز وجل قائلاً: ﴿رَبُّنا أَفْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا﴾ أي: احكم بيننا وبين قومنا بنصرك وعدلك، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَانِحِينَ﴾ الحاكمين.

ولمّا عجز الكفار عن مناقشة شعيب عليه السلام، وأغلقوا في الوقت ذاته أذانهم عن دعوته: اتجهوا إلى عامة الشعب فيهم؛ يحذرونهم من شعيب عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ (٩٠)

أي: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ قال الكبار منهم، والرؤساء فيهم، الذين يملأون العيون ألبه، والصدور هيبة، وهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ لعامة الشعب، ﴿لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وأنتم بدعوته، وتركتم ديننا، وما نحن فيه ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ما أنتم فيه من مكاسب مادية.

وهكذا عاند الكبار والرؤساء ولم يؤمنوا!! وطغى الكبار والرؤساء، فصدوا غيرهم عن الإيمان!! ورضي الكبار والرؤساء، والأتباع بالكفر الذي هم عليه، والضلال الذي هم فيه، ولم يتبعوا دعوة نبيهم. فماذا حدث لهم؟

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ (٩١)

يعني: فأخذتهم الزلزلة، فأهلكتهم، سريعاً سريعاً، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ ميتين.

وبهذا الشكل وبهذه السرعة، وبهذا العدل صار:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٢)

يعني: صار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ ولم يؤمنوا بدعوته، من الكبار والرؤساء والأتباع، بعد هلاكهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأن لم يكونوا أصلاً، ولم يقيموا في هذه الديار قبلاً.

صحيح: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ ولم يؤمنوا بدعوته، من الكبار والرؤساء والأتباع ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ لا من اتبعه وآمن به.

وبعد أن نزل العذاب بقوم شعيب، وبعد هلاكهم؛ نظراً لكفرهم، يبدو أن سيدنا شعيباً عليه السلام حزن على عدم إيمان قومه:

﴿فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَفَصَحْتُ لَكُمُ الْكَيْفَ
ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٣)

يعني: ﴿فَنَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم، ﴿وَقَالَ﴾ في نفسه ﴿يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَتِي رَبِّي﴾ لتؤمنوا بها ﴿وَفَصَحْتُ لَكُمُ﴾ حتى لا يصيبكم العذاب، ولكنكم:
كفرتُم بـ ﴿رِسَالَتِي رَبِّي﴾ ولم تتنفعوا بنصحي؛ فأصابكم العذاب، لكفركم.
وينبغي أن لا أحزن عليكم، وإلا ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى﴾ أي: أحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ
كَافِرِينَ﴾!!

بعد أن قصَّ الله تبارك وتعالى علينا - كما سبق - ما فعله بأقوام: نوح، وهود، وصالح،
لوط، وشعيب، ﷺ يعقُب - سبحانه وتعالى - بتعقيب يوضح فيه سُنتَه في المكذِبين،
ويخوِّف به أهل الكفر على مدار الزمان، حيث يقول عز من قائل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤)

يعني: لم نرسل في ﴿قَرْيَةٍ﴾ أي: مدينة، نبياً يدعو أهلها للإيمان بالله رب
العالمين، فكفروا، وتكبروا، ولم يتبعوا نبيهم، ولم يؤمنوا بربهم ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾
أي: أهل هذه المدينة ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ أي: بالبؤس والفقر، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ من متاعب
وأمرض، وذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ إلى ربهم، ويتخلَّوْا عن الكفر والكبر.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءِابَاءُنَا الضَّرَّاءُ
وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ (٩٥)

يعني: بعد أن عاملناهم بالشدة والمحنة: تعاملهم بالرخاء والنعمة ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ
السَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما يسوؤهم، بالْحَسَنَةِ، وهي كل ما يسرهم اختباراً لهم؛ ليؤمنوا
ويشكروا!!

﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أي: كثروا، وتحسَّنت أحوالهم، ونمت أموالهم، فماذا فعلوا؟ هل
آمَنوا؟ كلا، بل ﴿قَالُوا قَدْ مَسَّ ءِابَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾، أي: هذه عادة الدهر، وطبيعة

الأيام، يوم لك ويوم عليك، وما هذا التحول بين الضراء والسرء بعقوبة ولا اختبار !!
ولا رب هناك، ولا رسول يطاع، ولا إيمان يكون !!
يقول رب العزة: ﴿فَأَخَذْنَهُمْ﴾ أي: بالعذاب ﴿بَعْنَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت نزوله.

ثم يبين المولى - في هذا التعقيب - العلاقة بين الإيمان ومعاملة الله لأهله، هذه العلاقة التي قد تخفى على الكثيرين؛ لأن آثارها قد لا تظهر في المدى القريب، وإن كانت واقعة لا محالة، ولو على المدى البعيد، حيث يقول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦)

يعني: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبِلَادِ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسله ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشرك، وابتعدوا عن الذنوب والمعاصي: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾ أي: خيرات ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: من كل جهة، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ بالله وآياته ورسله ﴿فَأَخَذْنَهُمْ﴾ عاقبناهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسبب كفرهم، وسوء فعلهم.

ثم يكون التذكير بمصارع المكذبين، والتهديد الإلهي، الذي يهز القلوب، ويوقظ الغافلين، في قوله تعالى:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ (٩٨) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ شَاءَ أَصْبَنَهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

يعني: هل آمن الكافرون من أهل البلاد أن يأتيهم عذابنا ليلاً، وهم نائمون؟
أو آمن الكافرون من أهل البلاد أن يأتيهم عذابنا نهاراً وهم لاهون بأعمالهم التي لا تنفعهم عن الإيمان شيئاً؟

هل آمنوا مكر الله بهم، وأخذهم بالعذاب من حيث لا يشعرون؟

إن كان كذلك، فقد خسروا إذ لا يأمن عذاب الله إلا الكافرون، الذين خسروا أنفسهم، حتى صاروا إلى النار!!

ثم أَوْ لَمْ يَتَبَيَّنْ ﴿لِلَّذِينَ يَرْتُوبُونَ﴾ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ﴿وَيَخْلُفُونَهُمْ فِيهَا﴾ ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ﴾ أي: عَذَّبْنَاهُمْ ﴿يَذُوبُهُمْ﴾ كما عَذَّبْنَا مَنْ قَبْلَهُمْ، وبذلك: نهلك - بقدرتنا - الوارثين، كما أهلكنا الموروثين؟

على كل حال نحن ﴿نَطْبَعُ﴾ أي: نختم على قلوب الكافرين ﴿فَهُمْ﴾ لا يتعظون، و ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ أخبار الأمم السابقة، سماع تدبر وتعقل وإفادة.

وينتهي هذا التعقيب الإلهي بلفت نظر الحبيب ﷺ إلى: تلخيص لأمر الأقوام التي تعطلت فطرتها، وغفلت قلوبها، وكذبت رسلها، وكفرت برّبها، حيث يقول له:

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يعني: هذه القرى، التي هي قرى قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، نقص عليك - تثبيتها لك، وتحذيراً للمكذبين - بعض أنبائها، هنا في هذه السورة، وبعض أنبائها في سور أخرى من سور القرآن الكريم.

هؤلاء جاءتهم رسلهم بالمعجزات؛ فكذبوا بها، ولم يؤمنوا، واستمروا على هذا الكذب إلى آخر أعمارهم؛ حيث إنه طبع وختم على قلوبهم، فلم يصل إليها هدى ولا إيمان، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الختم على القلوب ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ به، وبدعوة رسله ﷺ؛ لِمَا علم الله منهم أنهم يختارون الثبات والاستمرار على هذا الكفر.

هذا، ﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾ لأكثر الناس، ومنهم أهل هذه القرى ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ يستمسكون به، ويشبّون عليه ولكّنه: الهوى المتقلب، والطبيعة التي لا تصبر على تكاليف العهد، ولا تستقيم على صواب، ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا﴾ أي: ولكن وجدنا ﴿أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ منحرفين عن دين الله.

بعد هذا التعقيب - الذي عشنا معه - على مصارع المكذبين من: قوم نوح، وقوم هود،

وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، يأتي الحديث عن: قصة موسى ﷺ، مع فرعون وملائه أولاً، ثم مع قومه بني إسرائيل أخيراً.

ويلاحظ: أن قصة موسى ﷺ تشغل في هذه السورة، أوسع مساحة، وأكبر قدر شغلته في سورة واحدة من سور القرآن كلها، ويبدأ الحديث عن قصة موسى ﷺ، على النحو التالي، قال الله عز وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠٣)

يخبر ربنا - سبحانه وتعالى - أنه بعث موسى ﷺ، بعد هلاك هذه الأمم المكذبة. بعثه إلى فرعون مصر وقومه بالآيات البينات والحجج الواضحات؛ ليؤمنوا بالله رب العالمين. ولكنهم ظلموا، أي: كفروا، وظلموا الناس حين صدّوهم عن الإيمان بالله رب العالمين، واتباع أنبيائه المرسلين.

﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد، ويا كل من يقتدي به، ويتابعه، ويعتبر بمصارع المكذبين ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين كفروا، وكذبوا، وصدّوا عن سبيل الله؛ حيث كانت نهايتهم: الغرق .

ثم يبدأ المولى عز وجل في تفاصيل قصة موسى ﷺ فيقول:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرَعُونَ إِلَيَّ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤)
أي: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين بعثه الله إلى فرعون ﴿يَنْفِرَعُونَ إِلَيَّ رَسُولٌ﴾ إليك ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لتؤمن به، وتتبع تعاليمه.

ثم قال له تقوية لكلامه، وتوضيحاً لقضيته:

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٠٥)
يعني: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا﴾ جدير بي، ولا يليق مني أن ﴿أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا﴾ الْحَقُّ ﴿

حيث: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةٍ﴾ أنت وقومك بآية واضحة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ دلالة على صدقي معكم، لذلك ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وأطلق سراحهم؛ حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة. فماذا فعل فرعون؟

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٠٦) أي: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى عليه السلام ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ كما تدّعي من عند من أرسلتك ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ إلي، وأظهرها أمامي، لثبّت بها دَعْوَاكَ، وأصدّقك فيما تريد ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ماذا فعل موسى عليه السلام؟

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ (١٠٨) يعني: أجاب موسى عليه السلام فرعون فوراً، لمّا قال له: ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٦] أي: هذه العلامة التي تدّعيها على صدقك.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ من يده أمام فرعون وملائه، ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ في الحال، تتحوّل - بقدرة الله تعالى - إلى ثُعْبَانٍ مُبِينٍ، أي: حية عظيمة واضحة. ثم ﴿نَزَعَ يَدَهُ﴾ أخرجها من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ في الحال ﴿بَيْضَاءُ﴾ بياضاً عجيباً، خارجاً عن العادة، فيه نور واضح ﴿لِلنَّظَرِ﴾ من غير مرض بها، ولا برص فيها.

وهنا: يتفق فرعون مع مَنْ حوله من بطانته على إطفاء نور آيته، وإفساد حجته، حيث:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (١١٠)

أي: قالوا هذا ساحر ماهر، عليم بفنون السحر.

وهو ﴿يُرِيدُ﴾ بسحره هذا ﴿أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ مصر، ويستولي عليها هو، ويستأثر بكنوزها وخيراتها هو!!

وهنا: قال فرعون لبطانته: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فيماذا تشيرون عليّ؟ وفكّرت البطانة وقدّرت، ثم نظرت، ثم عبست وبسرت، ثم أذبرت واستكبرت.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾
 أي: ﴿قَالُوا﴾ لفرعون ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: احبسه وأخاه هارون، ولا تقتله
 ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ جندك ﴿حَاشِرِينَ﴾ جامعين للسحرة، وسوف ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ
 سَحَرٍ عَلِيمٍ﴾ ماهر، يكشف سحره للناس، ويبيّن كذبه للخلق أجمعين.
 وأرسل فرعون جنوده لجمع السحرة من البلاد:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿١١٣﴾
 يعني: ﴿جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ من بلادهم، لبلاط فرعون، وعلموا بالقصة، وعرفوا
 أهميتهم، ومدى الحاجة إلى سحرهم، لذلك ﴿قَالُوا﴾ لفرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾
 كبيراً عظيماً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ أي: إن غلبنا موسى في سحره بسحرنا.
 ولرغبة فرعون في النصر على موسى، وإبطال سحره:

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿١١٤﴾
 أي: ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ﴿نَعَمْ﴾ لكم ما أردتم، وفوق ذلك ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ تكونون
 عندي ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ لي، المنعمين بعتائي.
 ولما اطمأن السحرة إلى وعد فرعون، ودأبت خيالهم ميزات القرب منه، وكثرة عطايه
 لهم: اتجهوا إلى موسى ﷺ، في تحدّ وعناد:

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾
 أي: ﴿قَالُوا﴾ لموسى ﴿يَمُوسَى إِمَّا أَنْ﴾ تبدأ أنت، و ﴿تُلْقَى﴾ عصاك، كما
 فعلت أمام فرعون ﴿وَإِمَّا أَنْ﴾ نبدأ و ﴿نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ لما معنا.
 وهنا أراد موسى أن يُظهر للناس بطلان سحرهم بعد أن يندھشوا به، ثم تأتي عليه
 المعجزة فتسحقه وتمحقه، حيث:

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١١٦﴾
 أي: ﴿قَالَ﴾ موسى للسحرة ﴿أَلْقُوا﴾ ما معكم؛ ازدراءً لشأنهم، وقلةً مبالاة بهم
 وبسحرهم.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ أي: السحرة، ما معهم من الحيل ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ يعني: صرفوها عن حقيقة إدراكها بالحيل والشعوذة، ﴿وَأَسْرَهُوهُمْ﴾ أي: أخافوهم؛ حيث خيلوها حيات تسعى، وتتنجه نحو الجماهير التي خافت جدًا، ﴿وَجَاءُوا﴾ في أفعالهم هذه ﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ عندهم، وفي أعين الناس، وإن كان في نفسه حقيرًا تافهًا. ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ﴿٦٨﴾ [طه: ٦٧، ٦٨].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ يعني: فالتقى موسى عصاه من يده، فإذا هي حية تسعى، وإذا هي ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلع آلاتهم، وأدواتهم، التي يدعونها سحرًا، و ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ على الناس أي: يكذبون عليهم بها.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ أي: بعصى موسى أصبح الحق واقعًا، ماثلاً للعيان، يراه الجميع، وأما ما فعله السحرة، وما كانوا يدعون، ويعيشون عليه، ويكذبون على الناس به: فقد ظهر بطلانه. وأول من أدرك ذلك: هم السحرة أنفسهم، ولهذا يقول المولى عز وجل:

﴿فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ يعني: ﴿فَعَلِبُوا هُنَالِكَ﴾ غلبوا على أمرهم، وشعروا بهوانهم ﴿وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ أمام آية الله تعالى، التي آمنوا بصدقها، ولذلك: وقعت الواقعة:

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ وليس لفرعون، كما كانوا يفعلون قبلاً، بل:

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧١﴾ وحتى لا يظن فرعون أو غيره أنهم يقصدونه بقولهم: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقد بينوا للحاضرين، وللدنيا كلها: من الذي يقصدون، حيث قالوا:

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ﴿٧٢﴾

إذ أن ما رأيناه لا يكون من بشر، بل هذا فعل رب البشر.

نعم فعل رب موسى وهارون!!

وهنا جن جنون فرعون!!

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

أي: لا يد لمن أراد الإيمان بموسى أن يحصل على إذن مني، وقد ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، وهذا قمة الكبرياء!! وقمة الطغيان!!

ثم لم يحقق معهم، ولم يسألهم عن السبب لما فعلوا، بل ألقى التهمة عليهم، ولفق القضية لهم، حيث قال:

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾.

وهدد وتوعد قائلاً: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما سأفعله بكم وبأمثالكم، حتى يرجعوا عن إيمانهم بـ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]..!!
ولما لم يرجعوا، ولما ثبتوا على إيمانهم، قال:

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

أي: لأقطعن منكم اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، واليد اليسرى مع الرجل اليمنى.

وبعد ذلك: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بدون استثناء على جذوع النخل.

وهذا: تهديد مخيف، تنخلع له القلوب، وتطير منه الأفئدة، ولكن المؤمنين: يثبتهم الله، ويهون عليهم الآلام، بل يجعلهم - بقدرته - يستعذبون آلام الدنيا للنجاة من آلام الآخرة، حيث نرى أن السحرة:

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يعني: نحن لا نبالي بتهديدك وتعذيبك؛ لأننا صائرون إلى رحمة ربنا سبحانه وتعالى، ثم قالوا له:

﴿وَمَا لَنُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِإِثْبَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

أي: نحن نعرف جيداً أن تهديدك لنا، وتعذيبك إيانا، ليس لشيء إلا ﴿أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾.

ولذلك: لن نتخلى عن إيماننا هذا مهما فعلت بنا، ثم أهملوه وتركوا النقاش والكلام معه، وتوجهوا إلى ربهم قائلين: يا ربنا هب لنا منك صبراً واسعاً، وأكثره علينا، حتى يفيض ويغمرنا، وثبتنا على إيماننا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ لك، غير مفتونين، بسبب وعيد وتهديد وتعذيب هذا الطاغية فرعون.

وبهذا انتهى الكلام عن هؤلاء السحرة - الذين آمنوا بالله رب العالمين - في هذه السورة، إلا أن قصة موسى عليه السلام نفسه مع فرعون لم تنته بعد، حيث إن بطانة فرعون وحاشيته، والمتنفعين برفقته صاروا يحرضون طاغوتهم على موسى عليه السلام، يقول تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧)

قالوا لفرعون: أترك موسى وقومه، بعد هذه الجولة التي انتصر فيها عليك ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر، بالاستعلاء والتكبر عليك، وتغيير دين الناس ﴿وَيَذَرَكَ﴾ ويترك احترامك والخضوع لك، والمذلة بين يديك، ولا يعبد ﴿ءَالِهَتَكَ﴾؟

وقد أثر هذا الكلام في فرعون، حيث قال سنفعل بهم ما كنا نفعل من قبل ﴿سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الذكور ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ لخدمتنا، وعلى كل: لا تخافوا فالأمن مستتب، وكل شيء تحت سيطرتنا، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي: قادرون وغالبون.

وبلغ هذا الكلام موسى عليه السلام وقومه، وخاف قومه فماذا فعل؟

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨)

يعني: طلب منهم الاستعانة بالله تعالى، والصبر على تحمُّل مشاق الدعوة إلى الله، وإيذاء فرعون لهم.

ثم وعدهم بميراث أرض مصر والشام: إذا اتقوا الله، وثبتوا على إيمانهم ومبادئهم. ولكنهم مع ذلك اشتكوا لموسى عليه السلام:

﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾
 أي: ﴿قَالُوا﴾ لموسى لقد ﴿أَوْزَيْنَا﴾ من فرعون وقومه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ وزاد إيذاؤهم لنا ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فمتى النصر، والحال يزداد سوءاً؟
 أجاب موسى قومه: ﴿قَالَ﴾ اصبروا ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ نتيجة صبركم واستعانتكم به ﴿أَنْ يُهْلِكَ﴾ فرعون ﴿عُدُوَّكُمْ﴾، ثم ﴿يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ من بعده.
 وسوف يكون هذا: اختباراً لكم، في حسن خلافتكم من بعده ﴿فَيَنْظُرَ﴾ ربكم ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ آنذاك؟ هل تحسنون أو تسيئون؟

وبعد أن حَضَّ موسى قومه على الصبر، والرجاء الحسن، بدأت العقوبات الإلهية: تتوالى على فرعون؛ انتصاراً لموسى ﷺ وقومه، ووعظاً لفرعون وقومه.
 ماذا حدث لفرعون وقومه؟ يقول رب العزة تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾
 يعني: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا﴾ ولقد ابتلينا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وهم المصريون، ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهي: الجذب والقحط والمجاعة، بسبب عدم نزول الأمطار، ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وكذلك بنقص الثمرات، يعني إتلاف الغلات والثمار بالآفات؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لعلهم يتعظون، فيؤمنون.
 ولكنهم كانوا كغيرهم من أهل الكفر والضلال:

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُٓ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾
 يعني: كانوا يتمادون في الكفر والضلال، ولا يردون الفضل لله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ وهي: الخصب والغنى ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ هذه حق واجب لنا نستحقه، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: قحط ومجاعة ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ يعني: يتشاءموا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ بموسى ﷺ ومن معه، وكأنهم هم السبب.

﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الحقيقة أن سبب خيرهم وشرهم عند الله تعالى؛ حيث إنه وحده الذي يقدر ما يصيبهم من حسنة أو سيئة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك؛ لجهلهم وكفرهم.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٢) أي: ﴿وَقَالُوا﴾ قالوا لموسى بالرغم من هذه الابتلاءات والمجاعات، وحتى ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ من آياتك ﴿لِنَسْحَرَنَّ بِهَا﴾ حتى نؤمن لك ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ولعنادهم هذا سَلَطَ الله عليهم عذابه، حيث يقول عز وجل:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (١٣٣)

أي: سَلَطْنَا عليهم هذه الآيات الخمس الواضحات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم ليؤمنوا، ولكنهم استكبروا وعاندوا، ولم يؤمنوا ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ في إيدائهم لله ولرسوله وللمؤمنين.

وقد يمكرون مع كل آية تنزل عليهم من هذه الآيات، قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْؤُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٣٤)

يعني: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ﴾ كانوا كلما وقع عليهم ﴿الرِّجْزُ﴾ وهو العذاب الحاصل من كل آية من هذه الآيات ﴿قَالُوا يَمْؤُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي: بما بينك وبينه من صلة وعهد أن يكشف عنا ما نحن فيه ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا﴾ بدعائك هذا ﴿الرِّجْزَ﴾ الذي نزل بنا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ﴾ كما تطلب ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

وهنا: يدعو موسى ربه أن يحقق ما طلبوا، حتى يؤمنوا، فيستجيب له ربه، ولكنهم ينكثون في وعدهم، يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (١٣٥)

يعني: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَزَ﴾ العذاب بسبب دعاء موسى ﷺ، في كل واحدة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ﴾ أي: إلى وقت ينكثون فيه وعدهم، ويغدرون في عهدكم ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ينقضون عهدهم، ويصرون على كفرهم.

ولنقضهم العهود!! ولعدم إيمانهم!! ولإصرارهم على الكفر!! يقول ربنا عز وجل:

﴿فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٦)

أي: عاقبناهم بالإغراق في البحر العميق، وأمواجه العاتية، وذلك: لأنهم كفروا وكذبوا بآياتنا، وغفلوا عنها، ولم يتفكروا فيها، وينتفعوا بها.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانِ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٣٧)

في هذه الآية الكريمة: يخبر تعالى أنه - بعد إهلاك فرعون وملائه - أورث ﴿الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ منهم، وهم بنو إسرائيل ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي: أرض الشام.

وبذلك: ﴿تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ وهي وعده تعالى لهم في قوله عز وجل:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥) ونمكن لهم في الأرض ونرى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿[القصص: ٥، ٦].

ثم قال: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانِ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارات والمصانع والمزارع ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ أي: يبنون.

وبعد هلاك فرعون وقومه في البحر، وبعد نجاة موسى ﷺ وقومه من الغرق، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨)

ومن هنا يبدأ الحديث عن بني إسرائيل في حياة موسى عليه السلام.

والمعنى: وعبرنا ببني إسرائيل البحر، ونجيتهم من فرعون وقومه، ورأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا!!

ولكنهم حين مرّوا على قوم يعبدون أصنامًا صنعوها، واتخذوها آلهة لهم: قال الجهلة فيهم ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ نعبده، ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ يعبدونها.

وهكذا ولفساد طبيعتهم، وانحراف فطرتهم: نسوا الله تعالى سريعاً، وهنا ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿إِنَّكُمْ﴾ بطلبكم هذا ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمة الله تعالى، وما يجب له من التنزيه عن الشريك.

ثم بيّن لهم بطلان ما عليه عبدة الأصنام هؤلاء حيث قال:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٩)

يعني: إن عبادة هؤلاء هالكة، وعملهم هذا باطل، فلا تكونوا مثلهم.

ثم: ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْيَاحَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠)

يعني: أغير الله تعالى ﴿أَبْيَاحَكُمْ﴾ أطلب لكم، وهو سبحانه الذي ﴿فَضَّلَكُمْ﴾ على ﴿الْعَالَمِينَ﴾ من أهل مصر، وخلّصكم من دُلّهم لكم، ونصركم عليهم؛ حيث أنجاكم وأغرقهم، فكيف أطلب لكم إلهاً غيره سبحانه وتعالى؟ هذا طلب لا يليق منكم أبداً، أنسيتم ما كان يحدث لكم؟

ولكن ماذا كان يحدث لهم؟ يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١٤١)

يعني: اذكروا حالكم - يا من تطلبون إلهاً غير الله تعبدونه - عندما نجيناكم ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم يذيقونكم أشد ألوان العذاب، وأصعب أحواله، ومن صورته: أنهم كانوا ﴿يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: الذكور منكم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ لخدمتهم، وإذلالكم.

﴿وَإِنْ فِي ذَلِكُمْ﴾ الإنجاء من الله، أو سوء العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ أي: اختبار ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، أفلا تتعظون وتنتهون عما قلتم؟

ثم يقص الله تعالى علينا ما أتم به النعمة على موسى ﷺ وقومه بما حصل لهم من الهداية؛ بتكليمه موسى ﷺ، وإعطائه الألواح، وفيها أحكامهم، وتفصيل شرعهم، وماذا فعلوه من انحرافهم الآخر الجديد، خلال غيبته ﷺ عنهم؟، حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّمَّقَتِ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢)

يعني: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى﴾ أن يصوم ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ فصامها.

يقول ابن كثير رحمه الله: وأكثر المفسرين على أنها ليالي شهر ذي القعدة، وبعد أن صامها موسى ﷺ: استاك لتذهب رائحة خلوف فمه، فأمره الله أن يصوم عشرين أخرى ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ وهي عشر ذي الحجة، فصامها، ﴿فِتْنٍ مِّمَّقَتِ رَبِّهِ﴾ أي: أمره به ﴿أَزْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

فعلى هذا: يكون تمام الميقات يوم النحر، وهو الذي حصل فيه التكليم لموسى، وهو الذي كمل فيه الدين - كذلك - لمحمد ﷺ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وبعد تمام الميقات: استخلف موسى ﷺ أخاه هارون على بني إسرائيل، وأوصاه - من باب التذكير - بالإصلاح، وعدم الإفساد، وإلا فهارون ﷺ نبي كريم، يصلح ولا يفسد. ثم يخبر ربنا - تبارك وتعالى - عن موسى ﷺ قائلاً:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنكَ بُتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣)

يعني: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ أي: الوقت الذي حددناه، ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾

بلا واسطة، ولا كيفية.

ولَمَّا سَمِعَ مُوسَىٰ ٱللَّهَ كَلَامَ رَبِّهِ تَعَالَىٰ: طَمَعَ فِي رُؤْيَيْهِ لَغَلْبَةِ شَوْقِهِ؛ فَسَأَلَ الرُّؤْيَةَ ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أَي: مَكْنِيَّ مِنْ رُؤْيَيْكَ بِأَنْ تَتَجَلَّى لِي حَتَّى أَرَى ذَاتَكَ.
﴿قَالَ﴾ لَهُ رَبِّهِ ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ أَي: بِالْعَيْنِ الْفَانِيَةِ، فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، بَلْ بَعَيْنٌ بَاقِيَةٌ فِي الدَّارِ الْبَاقِيَةِ؛ حَيْثُ لَمْ يَقُلْ لَهُ: «لَنْ أَرَى» لِيَكُونَ نَفْيًا لَجَوَازِ الرُّؤْيَةِ.

ولِلذَلِكَ: عَلَّقَ رَبَّنَا الرُّؤْيَةَ بِاسْتِقْرَارِ الْجَبَلِ، وَهُوَ مُمْكِنٌ؛ حَيْثُ قَالَ لَهُ: ﴿وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّهُ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ أَي: بَقِيَ عَلَى حَالِهِ ﴿فَسَوْفَ تَرِنِي﴾.

وَيَلَاحِظُ: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْنِفْ مُوسَىٰ ٱللَّهَ عَلَىٰ هَذَا السُّؤَالِ، بَلْ لَمْ يِعَاتِبَهُ.
ولِلذَلِكَ: نَظَرَ مُوسَىٰ إِلَى الْجَبَلِ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أَي: ظَهَرَ وَبَانَ ظَهُورًا بَلَا كَيْفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَمَثِيلٍ، وَخَلَقَ اللَّهُ فِي الْجَبَلِ حَيَاةً وَعِلْمًا وَرُؤْيَا، ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أَي: جَعَلَ اللَّهُ الْجَبَلَ مَدْكُوكًا، مُسْتَوِيًا بِالْأَرْضِ، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ ذِكْرًا﴾ هُنَا ﴿خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أَي: مَغْشِيًّا عَلَيْهِ؛ لِهَوْلِ مَا رَأَى مِنَ النُّورِ.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ مُوسَىٰ ٱللَّهَ، مِنْ غَشِيَتِهِ، ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ رَبِّي مِنَ النَّقَائِصِ كُلِّهَا، وَمَنْ أَنْ تُرَى فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ رَبِّي، مِنْ سُؤَالِي رُؤْيَيْكَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِعَظَمَتِكَ وَبِجَلَالِكَ، وَبِأَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَهُنَا: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤)

يَعْنِي: ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ تَعَالَىٰ ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ﴾ اخْتَرْتُكَ ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ ﴿بِرِسَالَتِي﴾ أَي: بِمَا أَوْحَيْهِ إِلَيْكَ، لَتَبْلُغَهُ عَنِّي ﴿وَبِكَلَامِي﴾ أَي: بِتَكْلِيمِي إِيَّاكَ، ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أَي: أُعْطَيْتُكَ مِنْ شَرَفِ النُّبُوَّةِ وَالتَّكْلِيمِ وَالرِّسَالَةِ وَالتَّوْرَةِ، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعَمِ، وَلَا تَطْلُبْ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، مِثْلَ الرُّؤْيَةِ. ثُمَّ يَخْبِرُ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ قَائِلًا:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤٥)
أَي: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ كَتَبَ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ ﴿فِي الْأَلْوَاحِ﴾ وَهِيَ التَّوْرَةُ،

أو كانت قبل التوراة ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ ينتفعون بها، وكتب فيها كذلك ﴿تَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجونه في دينهم. ثم يأمر ربنا موسى قائلًا: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذ ما في هذه الألواح من المواعظ، والتفصيلات بجد وعزم واجتهاد، ويأمره أيضًا قائلًا: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل، أن ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنَهَا﴾ أي: بالأحسن فيها كالعفو، وهو الأحسن بدل القصاص وهو حسن، ثم قال عز وجل لموسى وقومه ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: دار من ظلم، وفسق عن أمر ربه.

وفي هذا: وعد لهم أن ينزلهم منازل الظالمين، في بلاد الشام، وهو - في الوقت ذاته - تنبيه لهم أن لا يكونوا من الفاسقين، الخارجين عن طاعته.

وبعد هذا يبين الله عز وجل سُنَّةَ من سننه وقاعدة من قواعده التي لا تتخلف، في أي عصر، وفي أية بيئة، حيث يقول عز وجل:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٤٦)

يعني: سأمنع فهم آياتي والانتفاع بها عن عقول وقلوب المتكبرين عن طاعتي، والذين يتكبرون على الناس بغير حق.

ولذلك.. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ !!.. ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ !! ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ !! وما كل ذلك إلا بسبب أنهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كذبت قلوبهم بها ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ لا ينتفعون بها، ولا يعملون شيئًا مما فيها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٧)

يعني: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأنكروا ﴿لِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ واستمروا على ذلك إلى مماتهم: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ مهما كانت، وضاع ثوابها، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٨﴾ ؟ أي: نحن نجازيهم بحسب أعمالهم التي عملوها، ونياتهم فيها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

هذه القاعدة الربانية، التي قرأناها، فهي وإن كانت واردة في سياق الحديث عن بني إسرائيل، فهي أيضاً لهم ولنا، ولكل أمم الأرض إلى يوم القيامة. وبعد، فيخبر ربنا عز وجل عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، فيقول جل شأنه:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

أي: بعد أن ذهب موسى ﷺ للقاء ربه في الطور اتخذ «السامري»، ورضي القوم عجلًا، صنعه لهم من الحلي التي استعارها من أهل مصر حين خروجهم منها، وجعله جسدًا ﴿لَهُ خُورٌ﴾ أي: صوت كصوت البقر، بسبب مرور الهواء في جوفه، واتخذوه إلهًا لهم، وعبدوه.

وينكر الله عليهم كفرهم، وتفاهة عقولهم؛ حيث يقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بل الصوت كالبقر فقط ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ لأنه جماد لا يعقل، فكيف يهدي؟! بل كيف يفعلون ذلك أصلاً؟!!

وكيف يتخذون هذا إلهًا، ويتركون مَنْ خَلَّصَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَذُلَّهُ لَهُمْ، وأنجاهم من الغرق، وأغرق عدوهم أمام أعينهم، و.. إلخ.

حقًا ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ فيما فعلوه!!

ولمَّا رجع موسى ﷺ - كما سنبيِّن فيما بعد - وبيَّن خطأهم وعنفهم، وعرفوا أنهم أذنبوا!! يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يعني: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: عرفوا خطأهم - بعد عودة موسى ﷺ - ندموا ندمًا شديدًا، ﴿وَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بفعلهم هذا عن الصواب - وذلك ببيان موسى لهم - !! ﴿قَالُوا﴾ مستغفرين ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾

وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿١٤٩﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة، بسبب ما فعلناه.

ثم بيّن ربنا ما فعله موسى ﷺ، بعد عودته من لقاء ربه، وقبل توبة هؤلاء الذين عبدوا العجل، فيقول عز وجل:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ ﷺ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، من لقاء ربه، وكان الله عز وجل قد أعلمه بما فعل قومه؛ حيث قال له - كما في سورة طه - ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥] عاد إليهم ﴿غَضْبَنَ﴾ من فعلهم ﴿أَسِفًا﴾ أي: أشد الغضب، ثم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي: بئس ما صنعتُم من عبادتكم العجل بعد أن تركتكم، وذهبت إلى لقاء ربي ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ وسبقتم إلى عبادة العجل قبل أن آتيكم بالتوراة؟ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ من غضبه عليهم، وتأسفه من فعلهم، والتفت إلى أخيه غاضبًا كذلك:

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ في عتاب شديد، خوفًا من أن يكون قَصْر في نهيم عما فعلوا، قائلًا له - كما في سورة أخرى -:

﴿... يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

وهنا: أجاب هارون ﷺ، مستدرجًا عطف أخيه، قائلًا: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ أي: يا أخي ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ وهذه طبيعة بني إسرائيل لا يحترمون الضعفاء، ولو كانوا على حق ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ فطبيعتهم الشماتة، وإيذاء الأنبياء، ثم قال له: ﴿وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تخلطني بهم، ولا تعاملني معاملتهم.

ولمّا اتضح لموسى ﷺ عذر أخيه:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥١)

أي: رب اغفر لي ما فرط مني في حق أخي، واغفر لأخي إن كان قد فرط في حسن الخلافة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ في عصمتك في الدنيا، وجنتك في الآخرة ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فلا راحم لنا ولا لغيرنا سواك، فارحمنا.

هذا ما كان من شأن موسى ﷺ وأخيه، وأما الذين اتخذوا العجل من بعد موسى وندموا، فيقول عنهم رب العزة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (١٥٢)

وهذا الغضب الإلهي الذي نال بني إسرائيل بسبب عبادة العجل: فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، إلا أن يقتل بعضهم بعضاً، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة في الحياة الدنيا: فهي بمزيد التغريب والتشنيت لهم، أو بمواقف الذلة في الأرض التي هم فيها، والتي يعانون منها إلى يوم القيامة. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ الكاذبين على الله.

ثم - بعد هذا - ينبئ ربنا - تبارك وتعالى - إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، فيقول عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٥٣)

أي: كل من عمل سيئة، أيًا كانت - ويدخل فيها سيئة عبادة العجل من بني إسرائيل - ثم تاب عنها - ويدخل فيها توبتهم بقتل بعضهم البعض - وآمن، أي: وحسن إيمانه، فإن ربك من بعد توبته وإيمانه ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنبه ﴿رَّحِيمٌ﴾ به، منعم عليه.

وأما بالنسبة لغضب موسى ﷺ فيقول رب العزة:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ فِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٤)

يعني: ولما سكن الغضب عن موسى ﷺ ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ﴾ التي كان قد ألقاها قبل ذلك من شدة الغضب؛ غيرة لله تعالى، وغضباً لدينه، ولما أخذها ﴿وَ﴾ وجد ﴿فِي نُسخَتِهَا﴾ أي: فيما كتب فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يخشعون له، ويخضعون لأحكامه وتعاليمه. بعد ذلك يقول رب العزة:

﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَّهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥)

أي: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى﴾ من قَوْمِهِ ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ من أجل أن يعتذروا لربهم عن الذين عبدوا العجل، في موعد حدده الله تعالى، فلما ذهبوا إلى المكان المحدد في الموعد المحدد، قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذتهم الصاعقة؛ فماتوا جميعاً.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الصاعقة، أو الذلّة، وماتوا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ حين عبدوا العجل، وليس الآن ﴿وَإِنِّي﴾ لقتلي القبطي، ثم قال: يا رب ﴿أَتَّهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ وهم الذين عبدوا العجل، يا رب ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: قضية العجل ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: اختبارك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ فيسقط ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ حين لا يفتن ولا يضل، فالأمر أمرك، والحكم حكمك.

﴿أَنتَ وَلِنَا﴾ القائم على أمورنا كلها، وليس لنا سواك، ﴿فَاعْفِرْ لَنَا﴾ ولا تؤاخذنا بذنوبنا، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بعدم الوقوع في الذنوب مستقبلاً، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وبعد دعاء موسى ربه بما يطلب النجاة منه دعا ﷺ بما يحب أن يحصل عليه، حيث قال:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

يعني: حقق لنا في الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وعافية، وفي الآخرة الجنة. ثم علل هذا الطلب بقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: رجعنا إليك، وتبنا عن خطايانا. عن علي رضي الله عنه قال: إنما سميت اليهود بهذا الاسم لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾. يقول العلماء: وكان هذا الاسم، اسم مدح لهم قبل نسخ شريعتهم، وبعده صار اسم ذم، وهو لازم لهم.

ولكن ماذا قال الله تعالى لموسى بعد هذا الدعاء؟ ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ تعذيبه، ثم قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾ أي: عمت كل شيء في الدنيا.

يقول المفسرون: ولما نزل هذا الجزء من الآية، فرح إبليس وقال: أنا من ذلك الشيء، أي: الذي ستعمه رحمة الله!!

فأخرجه الله منها؛ وقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفرح اليهود وقالوا: نحن نتقي ونؤمن بآيات ربنا!! فأخرجهم الله منها، وأثبتها لمن يتبع محمداً ﷺ.

حيث قال: مَيِّمًا لَهُؤْلَاءِ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ أَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

يعني: أكتب رحمتي لهؤلاء ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ اسماً ووصفاً ﴿مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ دون من بقي على دينه ولم يؤمن به ويتبعه.

ومن أوصاف هذا النبي الموجودة في الكتابين - التوراة والإنجيل - كذلك: أنه ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما حُرِّم عليهم في شرعهم كالحوم الإبل، وشحم الغنم والمعز والبقر، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ العهود الشديدة التي أخذت عليهم، مثل قتل النفس في التوبة، وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في يوم السبت، وغير ذلك.

ثم يقول رب العزة: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ أي: بهذا النبي الأمي، الموصوف - في التوراة والإنجيل - بالصفات السابقة ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ أي: وقَّروه واحترموه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه ﴿وَاتَّبَعُوا التَّوْرَ الَّتِي أَنْزَلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل خير - من أية أمة كانوا، أو في أي عصر وجدوا - والناجون من كل شر.

وبعد أن بيَّن ربنا - تبارك وتعالى - ما في الكتابين - التوراة والإنجيل - من صفات محمد ﷺ، وبعد أن شَرَّفَ من اتبعه، ووصفه بالفلاح، أمره ﷺ ببيان أن ذلك الشرف شامل لكل من اتبعه، وبدعوتهم للإيمان به واتباعه، فقال له:

﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨)

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس جميعاً، أحمرهم وأسودهم، عربهم وعجمهم ﴿يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ بلا استثناء، هذا الإله ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ !! هذا الإله الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ !!

وما دام هذا الإله كذلك: فإنه سبحانه يأمرهم جميعاً بقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

الذي جاء وصفه في الكتب السابقة بأنه ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ الذي يصدق قوله عمله، و﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، ثم يقول رب العزة: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أي: اسلكوا طريقه أيها الناس، والتزموا شريعته ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الصراط المستقيم، والنعيم المقيم.

هذا وإذا كان اليهود هم أصحاب الكتاب الأول، وهم الذين بشر الله في كتابهم بهذا النبي الأمي: فهم مدعوون للإيمان به واتباعه.

ولذلك جاء الكلام عنهم مباشرة فيما يلي، حيث يقول رب العزة تبارك وتعالى:

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)

يعني: أن بني إسرائيل - قوم موسى - كانوا طائفتين: واحدة منهم ﴿أُمَّةٌ﴾ عندها استعداد للحق وقبوله واتباعه ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ في عقيدتهم وسلوكهم، ويهدون به غيرهم ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يحكمون، والطائفة الأخرى: ليس عندها هذا الاستعداد، وهم الكثرة، وهم الذين انحرفوا، وكثر وطال انحرافهم.

ثم يحدثنا ربنا عز وجل عن بني إسرائيل قائلاً:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ: أَبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرُّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٠)

يعني: وفرقنا بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة قبيلة وكل قبيلة أسباط، والأسباط: ولد الولد، ﴿أُمَمًا﴾ لأن كل سبط صار أمة كبيرة، وكل أمة كانت تتجه خلاف الأخرى.

وحين طلب قوم موسى منه أن يشربوا، وهم في الصحراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ﴾ أوحينا إلى موسى ﴿أَبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فلما ضرب الحجر بعصاه ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ أي: انفجرت من الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ

عَيْنًا ﴿١٦١﴾ من ماء، وبهذا ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي: سبط ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾.

وكذلك وهم في هذه الصحراء القاحلة ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ أي: السحاب؛ ليقهيم حرارة الشمس، ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ وهو شيء حلو كان ينزل عليهم من السماء، مثل الثلج، من الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَالسَّلَوَى﴾ وهو طائر السماء.

وقلنا لهم: ﴿كُلُوا﴾ واشربوا ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فكان الواحد منهم يأخذ ما يكفيه من هذا الطعام والشراب.

ومع ذلك: قابلوا هذه النعم بالكفران، وظلموا أنفسهم بالشرك، فعاد وباله عليهم، وما ظلمناهم في شيء ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هؤلاء هم: بنو إسرائيل كانوا يرون آيات الله، ويتنعمون بها؛ ثم لا يشكرون الله عليها، بل يكفرون، فهل يستغرب منهم الكفر بالدين الجديد، ومحاربة أهله وأتباعه؟

وهذا الذي يقدم عنهم: حجة عليهم، ودرس للمسلمين، حتى لا ينخدعوا بهم، ويثقوا في وعودهم يوماً ما.

ثم يقول رب العزة لحبيه ﷺ، ولكل عاقل كذلك:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٦١)

يعني: اذكر واعتبر، أو اذكر وذكر يهود اليوم بما فعله أسلافهم حين ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ من رب العزة، بعد خروجهم من التيه في الصحراء ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وهي بيت المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي: من ثمارها ومطعوماتها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ على راحتكم، ثم قلنا لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: حطاً عنا يا ربنا خطايانا ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: منحنين خاضعين خاشعين، فإن قلتم وفعلتم ذلك: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جميع ﴿خَطِيئَتِكُمْ﴾ من جهة و﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ منكم ثواباً من جهة أخرى.

ماذا قالوا؟ وماذا فعلوا؟ يقول رب العزة سبحانه وتعالى:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٢)

يعني: بدلًا من أن يشكروا الله تعالى بطاعته، والاستجابة لأوامره ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالذي قيل لهم ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ حيث قالوا كلامًا لا معنى له، يغيظون به موسى عليه السلام، وبدلوا الفعل أيضًا - كما سيأتي بيان ذلك.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بسبب مخالفتهم هذه، وعدم طاعتهم ﴿رِجْزًا﴾ أي: عذابًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وهو الطاعون، وقد مات به منهم سبعون ألفًا في وقت واحد ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

فهل نستغرب - بعد ذلك - رفض اليهود لدعوة الله؟ وهل ننتظر منهم - بعد هذا - وفاء للعهد؟ وهل نتعظ - بدورنا - ونبتعد عن ظلم أنفسنا بمعصية الله، ومخالفة أوامره، وإهمال تعاليمه؟ ثم يقول ربنا عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم:

﴿وَسَلِّتُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٣)

أي: ﴿وَسَلِّتُمْ﴾ واسأل يا محمد اليهود المعاصرين لك عن أسلافهم من أهل القرية، الذين ظلموا وبدلوا فعلًا غير ما أمر الله به.

هذه: ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي: قرية منه أو على ساحله، وهي «أيلة» على خليج العقبة، وهي التي أحيا اليهود حاليًا اسمها مرة أخرى، وسموها «إيلات»، وكان أهلها ﴿يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: يتجاوزون حدَّ الله، ويخالفونه في يوم السبت، وذلك أنهم كانوا قد نُهوا عن العمل واصطياد السمك فيه، ولكنهم هتكوا حرمة، ﴿إِذْ﴾ كانت ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ الذي مُنعوا من العمل فيه؛ تعظيمًا له ﴿شُرْعًا﴾ أي: ظاهرة واضحة، فيجسونها لاصطيادها في غير السبت، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: في غير يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ هذه الأسماك، وهذا: ابتلاء وامتحان لهم من الله تظهر به طاعتهم لله أو مخالفتهم.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الابتلاء بموضوع السمك ﴿نَبَلُوهُمْ﴾ نختبرهم ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم ومخالفتهم أوامر ربهم، وتحايلهم على انتهاك محارم الله.

وبالنسبة لموضوع صيد السمك هذا، يُروى عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه قال: انقسم أهل هذه القرية إلى ثلاث فرق:

فرقة: خالفت أمر الله، واحتالت في صيد السمك، وارتكبت المحظور.

وفرقة: نهت المخالفين عن هذا المنكر، واعتزلتهم.

وفرقة: سكنت فلم تفعل، ولم تنه.

ويخبر ربنا عز وجل عن هذه الفرقة التي سكنت أنها قالت لمن أنكروا ونهوا غيرهم عن المخالفة:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٦٤)

أي: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ قالت فرقة منهم، وهي التي سكنت، لمن نهت عن المنكر ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ بسبب مخالفتهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ حيث لا ينفع الوعظ معهم؟

أجاب أهل الفرقة الصالحة، التي لم تسكت على المنكر، بل رفضته، ونهت عنه ﴿قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: وعظناهم ليعذرنا الله، ولا تُنسب إلى التفريط في النهي عن المنكر، وأيضاً: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، ويستجيون لنا.

ثم ماذا حدث لهم؟ يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا سَوَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أُنْجِنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

أي: ﴿فَلَمَّا سَوَوْا﴾ الذي خالفوا وتركوا ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من وعظ الصالحين لهم كانت النتيجة: أننا ﴿أُنْجِنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ والذين قالوا لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] من العذاب ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وخالفوا، وارتكبوا

المنكر ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾
يعني: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ أي: تكبروا وتمردوا ﴿عَنْ﴾ ترك ﴿مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ كما أمرهم ربهم: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: جعلناهم قردة ذليلين حقيرين، وهذا هو العذاب البئيس الذي ذكرته الآية السابقة.

وبعد ذلك: يأمر ربنا رسوله ﷺ أن يذكرهم بما هددهم به سبحانه إن انحرفوا، فقال عز وجل:

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوبُكَ لِيُبَعِثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
يعني: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ﴾ أي: قضى ﴿رُكُوبُكَ﴾ يا محمد ﴿لِيُبَعِثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لِيُسَلِّطَنَّ عَلَى الْيَهُودِ ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ﴾ يعني: يذيقهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ إذا عصوا وخالفوا أوامره.. وقد فعلوا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ لأهل طاعته ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

ثم يخبر ربنا عز وجل كيف أنه فرق اليهود في الأرض كلها، وجعلهم طوائف ممزعة.. حيث يقول سبحانه:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
يعني: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ أي: اليهود ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كلها ﴿أُمَمًا﴾ أي: فرقا، فلا يخلو بلد من فرقة من فرقهم.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من هذه الفرق ﴿الصَّالِحُونَ﴾ الذين اتبعوا موسى عليه السلام، والتمزموا بشرع الله، وبعد بعثة عيسى عليه السلام: لا صالح منهم إلا من اتبعه، ثم بعد بعثة محمد عليه السلام:

لا صالح منهم - أيضًا - إِلَّا مَنْ اتَّبَعَهُ، ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من هذه الفرق ﴿ذُنُوكَ﴾ أي: غير صالحين، وهم الفسقة.

﴿وَبَلَّوْنَهُمْ﴾ أي: اليهود ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالرخاء والشدة، بالنعيم والنقم، كَسَيِّئَاتِنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إِلَى اللَّهِ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْتَهُونَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. فهل رجعوا إلى الله؟ يقول الله تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

يعني: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هذا الجيل الذي عوقب بالتشتت ﴿خَلْفٌ﴾ أي: جيل سيء، لَأَنَّ الْخَلْفَ بَفَتْحِ اللَّامِ هُوَ الْجِيلُ الصَّالِحُ، وَبَسكونها هُوَ السَّيِّئُ، ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة عن أسلافهم، وعرفوا ما فيها، ولم يعملوا بها، حيث صاروا ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: الحطام والدُّنْيَا من متاع الدنيا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: لن يؤاخذنا الله بما فعلنا دون أن يقلعوا عن ذلك، بدليل أنهم ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: يعودون إلى الخطأ دون إقلاع عنه، وعدم عود إليه.

هل يُنتظر من هؤلاء صلاح؟ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ﴾ قبل ذلك ﴿مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: العهد المذكور في الكتاب، وفيه ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهم قد ﴿دَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ وعرفوا ميثاقهم، وما أخذ عليهم؟ ومع ذلك: كانوا يخونون حكم الله، ويخالفون شرعه، من أجل الدنيا.

﴿وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الخسيس الذي يخونون، ويخالفون بسببه ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله بفعل ما أمر، والبُعد عما نهى عنه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيؤثرون الآخرة ويفضلونها على الدنيا؟ أو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يا أمة محمد ﷺ، فتنتهون لهم، ولا تأمنونهم، ولا تعاهدونهم؟

ثم أثنى ربنا سبحانه، ومدح مَنْ تَمَسَّكَ بِالْحَقِّ وَاتَّبَعَهُ، حيث يقول جل شأنه:

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧٠)

يعني: مَنْ تَمَسَّكَ بكتابه، الذي يقوده إلى الحق، وإلى اتباع رسوله محمد ﷺ بما فيه من أوصاف له وبشارات به، وأقام الصلاة: فهذا هو المصلح الحقيقي، والمُحْسِن الحقيقي، الذي لا يضيع أجره عندنا ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

لقد بيّن الله تعالى فيما سبق مخالفات اليهود وانحرافاتهم، بل تحريفاتهم لتعاليم ربهم!! وكذلك: كيف أن الله قضى أن يبعث عليهم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]؟

وكيف أنه قطعهم وفرقهم ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨]؟

وكيف أنه خلف من بعدهم ﴿خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩] أسوأ منهم..؟

وكيف أن الله بيّن أن مَنْ يَتَمَسَّكَ بكتابه، والعمل بتعاليمه ويقم الصلاة هو من الصالحين، والله لا يُضِيعُ المصلحين؟ ثم تأتي الآيات الكريمة التالية لتبيّن لنا لونا من معاناة موسى عليه السلام معهم، وصورة من صور اعوجاجهم وعنادهم لآيات ربهم. يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١)

هذه الآية الكريمة تحكي ردّا على بني إسرائيل، حينما قالوا: لم يحدث منا مخالفات للحق.

يعني: واذكر يا محمد، أو يا كل إنسان وقت أن جاء موسى عليه السلام لهم بالتوراة، وقرأها عليهم: فرفضوها، وامتنعوا عن العمل بها، فاقتلع الله الجبل، ورفعته حتى صار ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ فوق رؤوسهم، ﴿وَظَنُّوا﴾ أي: تأكدوا ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: ساقط عليهم لا محالة، وهنا: خروا ساجدين مرغمين، ثم قلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ أي: التوراة، وما فيها من أحكام ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجهد واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: اعملوا بما فيه من تعاليم وشرائع ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فلا تنحرفون.

ومع ذلك، ومع كل المواثيق والعهود: فقد انحرفوا، وما يزالون ينحرفون!!

وبهذا تنتهي قصة موسى مع قومه بذكر أخذ الله تعالى الميثاق منهم.

وتبدأ آيات السورة الكريمة أخذ الميثاق من البشرية كلها، بالعبودية لله رب العالمين، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢)

يعني: اذكر وقت أن ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حيث أخرج بعضهم من صلب بعض، حتى يصل هذا الإخراج إلى صلب آدم ﷺ ونُصِبَ لهم دلائل ربوبيته، ورُكِّبَ عقولاً تميّز الهدى من الضلال بقدرته ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ قائلًا لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أنت ربنا وخالقنا، ولا رب لنا سواك.

وقد فعلنا ذلك من أخذ شهادة الأرواح هذه، حتى لا ﴿تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ عند الحساب ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾ لا نعرفه.

﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَنُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٧٣)

أي: ﴿أَوْ﴾ تحتجون بحجة أخرى على عدم التوحيد، بأن ﴿نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فافتدينا بهم، وسرنا على دربهم، فلا لوم علينا، ولا عقاب لنا.

﴿أَفَنُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؟ يعني: لولا أن الله عز وجل أخذ من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على ربوبيته ووحدانيته: لقالوا هذا الكلام، وتعلّلوا بهذه العلل الساقطة.

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٤)

أي: هذا التفصيل الذي نفصله، والتوضيح الذي نوضحه، والبيان الذي نقدمه ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعل الذين كفروا يرجعون إلى مقامهم الأصيل، وفطرتهم الحقيقية، وهي: العبودية لله رب العالمين.

والعبودية، تكون: باتباع وحي الله تعالى، ورسله ﷺ.

وبعد هذا يأمر الله ﷻ أن يتلو على الناس خبر الذي استحوذ عليه الشيطان، وابتعد عن تعاليم الرحمن، حيث يقول له:

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥)

أي: ﴿وَأْتَلُ﴾ يا محمد، على اليهود، أو الدنيا كلها ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ التي تصلح شأنه، وتنفعه في الدنيا والآخرة، إذا اتبعها وعمل بها.

﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: ابتعد عنها، وكفر بها، ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ وصار قريباً له يضلّه أكثر وأكثر، ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الضالين الكافرين الخاسرين.

هذا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦)

أي: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ لهذا ﴿الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] الهداية، لاهتدئ، ولم ينسلخ من آياتنا، ويكفر بها، و ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ على منازل الأبرار من العلماء، بسبب العمل ﴿بِهَا﴾ ونشرها في العالمين، ﴿وَلَكِنَّهُ﴾ سبق في علمنا أنه ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى الدنيا، ورغب فيها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في تفضيل الدنيا ولذتها على الآخرة ونعيمها.

وهذا صار مثله في ذلك، ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي: يلهث إن تطرده أو تتركه، يعني: صار ذليلاً دائماً الذلة وهوان النفس.

﴿ذَلِكَ﴾ المثل ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ الكافرين ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾. ﴿فَأَقْصَصْ﴾ يا محمد، أو يا أيها الداعية، هذا ﴿الْقِصَصُ﴾ وأمثاله مما فيه العظة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل هذه النهاية السيئة، والصورة البغيضة. حقاً: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧)

يعني: ﴿سَاءَ﴾ المثل ﴿مَثَلًا﴾ مثل القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وضمُّوا إليه ظلم أنفسهم؛ حيث أوردوها موارد التهلكة. والذي ينبغي أن يُعرف جيدًا أنه:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)

يعني: لا هداية إلا من الله، ومن هداه الله: فهو الناجي الفاتر، ومن أضله الله: فهو الهالك الخاسر، فاطلبوا الهداية دائمًا منه سبحانه وتعالى.

ثم يخبر ربنا عز وجل أنه خلق لجهنم - أعادنا الله وإياكم منها - خلقًا، هم لها وهي لهم، وهذه صفاتهم:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَانَتْ لَكُمْ بَلًا هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩)

يقول تعالى جلَّت حكمته: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم الكفار من الجن والإنس، الذين علم الله تعالى - في الأزل - منهم اختيار الكفر على الإيمان؛ فشاء لهم الكفر، وجعل مصيرهم - بسبب اختيارهم - جهنم.

هؤلاء من أوصافهم أنهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ خلقها الله لينتفعوا بها، ولكنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يعقلون بها الحق، ولا يتفكرون فيها، فيؤمنون، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ خلقها الله لينتفعوا بها، ولكنهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ آيات الله، ويتفكرون فيها فيؤمنون، ﴿وَلَهُمْ أَذَانٌ﴾ خلقها الله لينتفعوا بها، ولكنهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الوعظ فيعقلونه، و ينتفعون به فيؤمنون.

﴿أُولَٰئِكَ كَانَتْ لَكُمْ بَلًا هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام؛ لأنهم كابروا وعاندوا، ولم يعرفوا ما يضرهم؛ حيث اختاروا النار، والأنعام تطلب منافعها، وتهرب عن مضارها.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الحقيقيون، والخاسرون الحقيقيون.

ولكن يجب علينا ألا نكون من هؤلاء الغافلين عن آيات الله، فيذكرنا الله تعالى بما يلي قائلًا:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠)

يعني: ﴿وَلِلَّهِ﴾ تعالى ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي هي أحسن الأسماء، ﴿فَادْعُوهُ﴾ أنتم يا مسلمون، وسمُّوه ﴿بِهَا﴾ واستعملوها في ندائه، وفي دعائه، وغير ذلك.

﴿وَذَرُوا﴾ أي: اتركوا ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يكذبون ويغيِّرون في ﴿أَسْمَائِهِ﴾ سبحانه وتعالى.

هؤلاء الذين يكفرون، أو يكذبون، أو يلحدون في أسمائه ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وهذا: تهديد لكل من يكفر بالله تعالى، ويلحد في أسمائه.

وإذا كان الله تعالى قد خلق لجهنم أهلها ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]: فقد خلق تبارك وتعالى للجنة - كذلك - أهلها حيث يقول:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)

يعني: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ ﴿أُمَّةً﴾ في كل عصر ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يهتدون، فيعملون به، ويدعون الناس إليه، لا يسكتون عن دعوتهم، ولا يتخلون عنها، ولا يتوقعون على أنفسهم، ولكنهم يهدون به غيرهم، من الضالين عن هذا الحق، المتكبرين له، المعادين للعمل به، وكذلك هم ﴿وَبِهِ﴾ أي: بهذا الحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس إذا حكموا.

وهذا الحق الذي يهدون إليه، ويحكمون به: هو ما أنزله الله، هو آياته في كتابه، وسنة رسوله ﷺ.

وفي مقابل هؤلاء الذين ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يوجد المكذبون بآيات الله، الذين يقول عنهم المولى ﷺ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣)

يعني: هؤلاء ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ سنفتح لهم أبواب الرزق، والمناصب، والمكاسب، و﴿سَنَسْخَرُهُمْ﴾ بها، حتى يغتروا، ويعتقدوا أنهم على شيء، دون أن يعلموا أننا سنضربهم الضربة القاضية ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يراد بهم. وكذلك: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم، قبل إهلاكهم - فيما هم فيه من النعيم، أو الضلال - ثم أكيد بهم وأهلكهم ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ بهم، وأخذي لهم، حين يكون ﴿مَتِينٌ﴾ قوي، لا نجاة لهم منه، ولا رحمة لهم فيه. وما دام الأمر كذلك والعذاب الشديد ينتظر المكذبين، فلم لم يتفكروا في وضع المنقذ لهم من هذا المصير الأليم، وهو محمد ﷺ!!

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

أي: لم يمتدح هؤلاء المكذبون، ويستعملوا عقولهم؟! إنهم لو تفكروا في أمر من يدعوهم إلى الإيمان: لعلموا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ يعني ليس مجنوناً، كما يدّعي بعضهم.

ولو تفكروا لعلموا يقيناً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لهم من عذاب الله ﴿مُبِينٌ﴾ واضح في دعوته، قوي صادق في حجته ﷺ.

أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

يعني: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ أو لم ينظر هؤلاء المكذبون نظر استدلال واعتبار، في هذا الملكوت العظيم ﴿مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا يُحصى ولا يعد؟

خاصة: وأنه ربما ﴿قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ وحانت نهايتهم.

فليبادروا إذن إلى التفكر والاعتبار، ومن ثم الإيمان وإلاً ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي: القرآن، أو الاعتبار الصحيح بخلق الأكوان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يهدم ذلك إلى الإيمان!!

ومن العجب: أن يبقى الإنسان - مع وضوح القرآن، ووضوح دعوة محمد ﷺ، ووضوح آيات الله في الكون - أن يبقى كافراً.

ولذلك: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦)

أي: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَهُ﴾ من أي أحد.

﴿و﴾ الله ﴿يَذَرُهُمْ﴾ يتركهم؛ لاختيارهم الضلال ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون، لا يستريحون، ولا يهتدون.

ومن الضلال - ومن الطغيان: أن يتركوا التفكير فيما ينبغي، وأن يتركوا العمل بما ينبغي، ويسألون عن أشياء، لا تقدّم معرفتها ولا تؤخر، مثل سؤالهم عن ميعاد يوم القيامة، يقول الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧)

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: اليهود، أو كفار قريش، أو من يضل ضلالهم ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ يوم القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى تكون، ويرسيها الله؟

﴿قُلْ﴾ هذا أولاً: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ لم يخبر أحداً، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل. ﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يظهر أمرها ولا يكشف خفائها إلا هو سبحانه وتعالى.

ومع أنها ﴿ثَقُلَتْ﴾ أهوالها وشدائدها على العقلاء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى يستعدّون لها بالعمل الصالح: فإنها ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ أي: فجأة.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: اليهود، أو كفار قريش، أو من يضل ضلالهم ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ مبالغ في السؤال ﴿عَنْهَا﴾ حتى علمت وقتها.

﴿قُلْ﴾ ثانياً: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لم يخبر به أحداً، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

ثم قال ربنا عز وجل لمحمد ﷺ:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ ثالثًا يا محمد:

أنا عبد ضعيف ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لي من النفع والضرر.

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ أي: المستقبل ﴿لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ شأني شأن كل الناس في هذا.

وما ﴿أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فقط ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ولا صلة لهذا، ولا لذلك بعلم الغيب.

وهكذا لفت الله عز وجل أنظار المشركين إلى التفكر في وضع رسول الله ﷺ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤]؟ ثم أعطاهم دليلاً من خلال إعلانات محمد ﷺ عن نفسه بما يدل على أنه رسول الله إليهم، وإلى الدنيا كلها.

وكما لفت الله عز وجل أنظارهم إلى التفكر في ملكوت السموات والأرض ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]؛ ليكون دليلاً يوصلهم إلى التوحيد، يلفت نظرهم - كذلك - إلى ما يوصلهم إلى التوحيد، حيث يقول:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلٌ خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٨٩﴾

يعني: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي: من نفس آدم ﴿زَوْجَهَا﴾ أي: حواء ﴿لِيَسْكُنَ﴾ يطمئن ويميل ويشتاق ﴿إِلَيْهَا﴾.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ آدم، أي: جامعها، ﴿حَمَلَتْ﴾ منه ﴿حَمَلًا خَفِيفًا﴾ شأن كل حمل في أول أمره، ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ الأيام، وهو - أي: الحمل - يكبر في بطنها شيئاً فشيئاً.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ به، أي؛ ثقل حملها، وقرب ميعاد وضعه: ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: دعا آدم وحواء ربهما قائلين: يا ربنا ﴿لَيْنَ ءَاتَيْنَا﴾ ولدا ﴿صَلِحًا﴾ سويًا سليمًا في بدنه وعقله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك نحن وهو، ومن يتناسل من ذريتنا.

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَى اللَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٩٠﴾

أي: ﴿فَلَمَّا﴾ استجاب الله دعاءهما، و ﴿ءَاتَاهُمَا﴾ ولدا ﴿صَلِحًا﴾ كما طلبا: ﴿جَعَلَا﴾ أي: الرجل والمرأة من ذرية آدم وحواء ﴿لَهُ﴾ أي: الله ﴿شُرَكَاءَ﴾ أي: شريكًا ﴿فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ أي: فيما آتى وأعطى أولادهما.

وللعلم: الذي جعل الشركاء لله هم ذرية آدم وحواء، وأما آدم عليه السلام وحواء: فهما بريثان من هذا الشرك تمامًا. وعلى كل ﴿فَتَعَلَى اللَّهَ﴾ وتنزهه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ ﴿١٩١﴾
أي: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ مع الله الخالق ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ ولا يستطيعه ﴿وَهُمْ﴾ في الوقت ذاته ﴿يُخْلِقُونَ﴾ أي: مخلوقون.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿١٩٢﴾
يعني: كما أن هذه الآلهة المزعومة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لمن جعلوهم آلهة، وأشركوهم مع الله، ﴿وَلَا﴾ حتى ﴿أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يحدث لها من كسر أو غيره!!

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ ﴿١٩٣﴾
أي: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ وتطلبوا منهم خيرًا، أو ترشدوهم ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ كما تطلبون من الله تعالى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم، ولا يجيبوكم في تحقيق ما تطلبون. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ أي: فدعوتكم لهم، وسؤالكم لهم، وعدم دعوتكم وعدم سؤالكم سواء في أنه لا فلاح معهم.

وما ذلك إلا بسبب أنهم مخلوقون مثلكم، لا يملكون شيئاً، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤)

يعني: ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء الشركاء ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ مخلوقون لا يملكون لكم ولا لأنفسهم شيئاً.

وإلا ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ لجلب نفع لكم، أو لدفع ضرر عنكم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ إذن في جلب النفع، أو دفع الضرر ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أنهم آلهة؛ وتشركونها مع الله!!

ثم يا أيها الناس، أيعقل أن يكون هؤلاء ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: عباد أمثالكم، وهي أصنام لا تعقل؟ أيعقل أن يكون هؤلاء آلهة؟

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (١٩٥)

يعني: ﴿أَلَهُمْ﴾ هؤلاء الشركاء ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ مثلكم؟

﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ يتناولون بها الأشياء؟

﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ يرون بها؟

﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ﴾ مثل آذانكم ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؟

لا، ليس لهم هذا ولا ذلك، من الأعضاء الأربعة، ومنافعها، فلم تعبدا هذه الأشياء إذن؟ وما داموا مُصِرِّين على عبادتهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم، في عداوتكم لي وهلاكي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: ابذلوا كل جهودكم في الكيد لي، أنتم وهم، ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي: ولا تعطوني مهلة في هذه الحرب؛ حتى لا أستعد لها. فإني بالرغم من ذلك كله لا أبالي بكم، ولا أهتم لأمركم.

حيث: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦)

نعم: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ﴾ فهو ناصرني عليكم، وهو الله ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾

عليّ وأعزني به، وشرفني برسالته، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ فينصرهم على أعدائهم، ولا يخذلهم.

أما الذين تدعون أنتم من دونه، فيقول عنهم ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلْعِيُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ﴾ (١٩٧)
أي: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ فهم عجزة مثلكم ﴿لَا يَسْتَلْعِيُونَ نَصْرَكُمْ﴾ علينا ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ﴾ على من يعتدي عليهم.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩٨)
يعني: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ لا يستجيبون لهداية؛ لأنه لا عقل عندهم، ولا حياة فيهم، ﴿وَتَرْتَهُمْ﴾ وأنت تنظر إليهم، كأنهم ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ﴾ في حقيقة الأمر ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ شيئاً.

وبعد هذا النقاش مع المشركين!!، وبعد إقامة الأدلة على ضلالهم!!

يأمر الله تعالى حبيبه محمداً ﷺ بأربعة أشياء، هي له ولأمته، في قوله عز وجل:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠)

فالأول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: اجعل العفو صفتك، حيث إنه لما نزلت هذه الآية، قال ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: «إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك».

والثاني: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف والجميل من الأفعال والأقوال، التي يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع.

والثالث: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا تقابلهم بمثل سفههم، وهي كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

يقول جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

والرابع: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أي: ينخسك بوسوسته ﴿فَاسْتَعِذْ

يَا لِلَّهِ مِنْهُ، أي: فالجأ إلى الله، واستجِرْ به بذكر الاستعاذة، ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع وسوسة الشيطان، ويسمع استعاذتك منه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما فيه صلاح أمرك، يفعله كرمًا منه لك، وعطفًا عليك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١)

حيث: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ربهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: شيء، كوسوسة بفعل المعاصي أو ترك الطاعات ﴿تَذَكَّرُوا﴾ الله تعالى ومراقبته، فخافوه واتقوه، وتذكروا عقابه على فعل المعاصي، وضياع ثوابه بسبب ترك الطاعات ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الحق، فاعلمون له، راشدون به.

وذلك بالرغم من العوائق التي تحول بينهم وبين النجاح في تنفيذ ذلك، والتي يشير إليها قوله تعالى:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٠٢)

يعني: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] هؤلاء ناجون، بالرغم من أن إخوانهم، وزملاءهم وأصدقاءهم السوء، من شياطين الإنس والجن ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ يشجعونهم في الانحراف والفساد، وما فيه ضررهم وهلاكهم، ويستمرون على ذلك التشجيع لهم ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ فيه، ولا يسكتون عنه.

ثم يبين ربنا عز وجل أنه بينما المتقون على بصيرة من نور الله، فإن المشركين في عماهم يقترحون على محمد ﷺ أن يأتي لهم بالآيات الدالة على صدقه؛ استهزاء منهم. يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجَبْتَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَافٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣)

أي: هم يقترحون عليك يا محمد أن تأتي لهم بالآيات، ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ كما يطلبون، يقولون لك: ﴿لَوْلَا آجَبْتَهُمْ﴾ أي: لولا اختلقتها من نفسك، كما فعلت بما قبلها، مثل القرآن الذي جئت به من عند نفسك.

﴿قُلْ لَهُمْ﴾ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴿﴾ لا أقترح عليه، ولا آتي بشيء من عندي، فأنا متبع لوحي ربي ملتزم به، ولست مبتدعاً لشيء مما جئت به.

وقل لهم أيضاً: ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَصَائِرُ﴾ وآيات ﴿مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، فيستفحون. فهلاً آمنتم، وانتفعتم!!

ولما ذكر ربنا سبحانه أن القرآن بصائر للناس، وهدى، ورحمة، أمر بالاستماع له، والإنصات عند تلاوته؛ إعظاماً له، واحتراماً، فقال لمحمد ﷺ: قل لهم وللدنيا كلها:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤)

يعني: يجب عليكم، ولمصلحتكم ﴿إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ أن تستمعوا له استماع تدبر وتعقل، وأن تنصتوا في خشوع وتواضع، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وفي الحديث قوله ﷺ: «من استمع إلى آية من كتاب الله: كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها: كانت له نوراً يوم القيامة».

ثم يأمر المولى تبارك وتعالى رسوله ﷺ، والمؤمنين أن يذكروا الله تعالى، وذلك في قوله:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥)

أي: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أيها المؤمن بكل ما تستطيعه من الأذكار، مثل: قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل، سرّاً، على أن يكون هذا الذكر ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذلاً لله تعالى ﴿وَخِيفَةً﴾ منه ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ لأن الإخفاء أقرب إلى الإخلاص، وحسن التفكير ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أوائل النهار وآخره، وداوم ع

لى ذلك ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ اللاهين عن ذكر الله ومراقبته. حيث:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢٠٦)

يعني: إذا كان ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولا

يترَفَّعون، ولا يمتنعون، ولا يتكاسلون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ قَلْبِيًّا، كالتسبيح ﴿وَيَسْبَحُونَهُ﴾ أي: ينزّهونه عما يليق به، وبدنيًّا، كالسجود له ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يخضّونه بالخضوع والخشوع والتذلل والعبادة. فكيف بكم أنتم؟

يعني: فكونوا مثلهم لا تستكبروا عن عبادة الله، وسبّحوه، ونزّهوه، وعظّموه، واخضعوا له.

وهذه أول سجدة في القرآن، وهي: من السجّدات، التي يُشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

وقد ورد في حديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ عدّها في سجّدات القرآن. [رواه: ابن ماجه].

فإذا قرأها المؤمن أو سمعها: سجد لله تعالى، ويقول في سجوده: ما يقول في سجود الصلاة، أو يقول: «اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخراً، تقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود». [رواه: الترمذي كتاب الجمعة، باب ما يقول في سجود القرآن، وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة، باب سجود القرآن].

